الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١



شفيق غربال

دار الشروق

الجنرال يعقوب
والفارس لاسكاريس

صدر هذا الكتاب عن
مركز الدراسات التاريخية
لدار الشروق
أسسه د. يونان لبيب رزق

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٤٧٣٣

ISBN 978-977-09-2489-3

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
e_mail: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

شفيق غربال

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١

تقديم ودراسة
د. محمد عفيفي

دار الشروق



المحتويات





الجنرال يعقوب حنا

(نقلا عن كتاب هممس الجنرال يعقوب صحيفة ١١٣)



تقديم

يُسعدنى أن تقوم دار الشروق بتقديم طبعة جديدة من هذا الكتاب المهم لهذا المؤرخ المهم «شفيق غربال» الذى يُعتبر بحق رايد الدراسات التاريخية الحديثة فى مصر.

وُلد شفيق غربال فى ٢٤ يناير ١٨٩٤ فى ثغر الإسكندرية، هذا الثغر الذى أنجب العديد من رموز الحركة الفكرية والفنية فى مصر. وفى البداية درس غربال فى مدرسة المعلمين العليا، التى تخرج فيها فى عام ١٩١٥.

وفى ظل النهضة الفكرية التى كانت تمر بها مصر بعد ثورة ١٩١٩، أُرسل غربال إلى جامعة لندن ليواصل دراساته العليا فى التاريخ الحديث، حيث درس على يد أشهر مؤرخ موسوعى فى القرن العشرين «أرنولد توينبى»، وكان عنوان رسالة الماجستير التى أعدها غربال فى إنجلترا «بداية المسألة المصرية وصعود محمد علىّ».

وعاد غربال بعد ذلك ليقوم بتدريس التاريخ فى المدارس الثانوية، ثم انتقل للعمل فى مدرسة المعلمين العليا، وأخيرًا استقر به المطاف للتدريس بجامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة بعد ذلك».

وتتعدد مؤلفات غربال التاريخية فى شتى المناحى المختلفة، ومنها هذا الكتاب الذى نُقدِّم له، والذى تنبع أهميته من معالجته للعديد من النقاط المهمة والحساسة فى تاريخ مصر. إذ يتصل الكتاب اتصالًا مباشرًا بمسألة تاريخ الاستقلال المصرى، والبحث عن شرعنة لجذور القومية المصرية؛ يُضاف إلى ذلك دور الحملة الفرنسية فى النهضة المصرية، والجدل الدايم والمستمر حول ذلك حتى الآن. فضلًا عن الربط بين فكرة «الوفد المصرى» أيام الجنرال يعقوب، و«الوفد المصرى» أيام

سعد باشا زغلول؛ وأخيرًا يتعلق الكتاب بمسألة دور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية.

لقد أثار هذا الكتاب عند صدوره العديد من مظاهر الجدل حول النقاط المهمة التى عالجها؛ ونعتقد أن إعادة نشره مرة أخرى سيصاحبها العديد من النقاشات المفيدة، لأن الكثير من النقاط التى يطرحها مازالت مثيرة للتساؤل حتى الآن.

هذا وقد رأت اللجنة العلمية بمركز الدراسات التاريخية لدار الشروق أن تسبق الكتاب بدراسة تكون مدخلا موضحًا وشارحًا للكتاب.

والله ولى التوفيق

د. محمد عفيفى

غربــال ومدرســة
«الليبرالية المحافظة» فى الكتابة التاريخية

قد يصطدم القارئ الآن فى عام ٢٠٠٨ ببعض مقولات غربال التى ذكرها فى كتابه هذا الذى صدر فى عام ١٩٣٢، فالمؤرخ عندما يكتب تاريخ الماضى يتأثر تأثيرًا كبيرًا بالمناخ السياسى والفكرى الذى يكتب أثناءه، ولا يتعارض ذلك فى الحقيقة مع فكرة «الموضوعية» فى كتابة التاريخ، فأولاً الموضوعية هى فى الحقيقة «نسبية»، ومن جهة أخرى المؤرخ يُعبِر عن اتجاه فكرى ينتمى إليه، دون أن يعتدى على الوقايع التاريخية.

من خلال هذه المقدمة البسيطة نستطيع أن ندخل إلى عالم شفيق غربال وعصره، وأيضًا إلى كتابه الذى نعيد نشره. إذ ينتمى شفيق غربال إلى جيل الرواد فى المدرسة التاريخية، حتى أن البعض ينظر إليه على أنه الأب الروحى لمدرسة التاريخ المصرى، أو على الأقل مدرسة التاريخ الحديث فى مصر. وغربال هو خريج الجامعات البريطانية وتلميذ أشهر مؤرخ موسوعى فى القرن العشرين «أرنولد توينبى». وهو أيضًا ابن المدرسة الليبرالية المصرية التى ازدهرت بعد ثورة ١٩١٩.

ولا ننسى أن عنوان رسالة الماجستير التى أعدها غربال فى إنجلترا كان عن «بداية المسألة المصرية وصعود محمد علىّ». كما أخرج لنا غربال بعد ذلك كتابًا آخر عن محمد علىّ أطلق عليه «محمد علىّ الكبير».

وهكذا يأتى اختيار موضوع كتابه الذى نعيد نشره عن «الجنرال يعقوب» لارتباط ذلك بفكرة «الاستقلال» استقلال مصر الذى يرى غربال أن أول من فكر فيه كبير

«الأسرة العلوية» محمد علىّ، وأن أسرته من بعدْه حافظت على هذا النهج، ويبدو ذلك واضحًا فى خاتمة الكتاب إذ ينص غربال على:

«كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية،أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد علىّ حتى اليوم».

ويفسر غربال ذلك تفسيرًا تاريخيًا مطولاً فى الصفحة الرابعة والعشرين من الكتاب، حيث يربط بين «الفيلق القبطى» الذى أنشأه المعلم يعقوب، وبين الجيش الحديث على النسق الغربى الذى أنشأه محمد علىّ قايلاً:

«عوَّل ـ يعقوب ـ على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية. فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك محمد علىّ بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية، فسرق البرق من الآلهة وكان له ذلك».

هكذا يربط غربال بين الفيلق القبطى وجيش محمد علىّ، وهى مقارنة غير عادلة، إلا من حيث الاستعانة بالخبرة الفرنسية، فظروف تشكيل الفيلق القبطى هى فترة الاحتلال الفرنسى، بينما تكوين جيش محمد علىّ تم فى إطار تجربة مخالفة هى تحديث مصر.

ويمكن تقبُل مقولات غربال السابقة فى إطار مشروعه، بل مشروع المدرسة التاريخية المصرية فى عصره، فى كتابة تاريخ الأسرة العلوية والبحث عن «جذور مصرية» لفكرة استقلال مصر التى بدأها ـ من وجهة نظر غربال ـ محمد علىّ وأسرته. فمشروع يعقوب فى استقلال مصر يمكن أن يُعتبر تأصيلًا تاريخيًا و«شرعنة» لأسرة محمد علىّ. ونتذكر أن غربال يكتب كتابه هذا فى عهد الملك فؤاد صاحب مشروع كتابة تاريخ محمد علىّ، هذا المشروع الذى استقدم واستكتب من أجله العديد من المؤرخين الأجانب.

وربما تتضح فكرتنا أكثر وأكثر إذا تتبعنا موقف غربال من السيد عمر مكرم، فعمر مكرم الآن فى مطلع القرن الواحد والعشرين وبعد سنوات طويلة من استقرار المدرسة التاريخية «القومية» بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يُعتبر زعيمًا وطنيًا، ورمزًا للمقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية، بينما هو ليس كذلك عند شفيق غربال الذى يكتب فى عام ١٩٣٥.

قد تصدمنا «رؤية» غربال لعمر مكرم ودوره، ولكننا لابد أن نتقبل هذه «الرؤية» فى إطار العصر الذى يكتب فيه غربال، وأيضًا فى إطار مدرسة «المعتدلين» فى الكتابة التاريخية، هذا الاتجاه الذى نرى أن غربال يتزعمه، فكما يوجد اتجاه «المعتدلين» فى السياسة المصرية، يوجد أيضًا هذا الاتجاه فى الكتابة التاريخية، وهو ما سنوضحه بعد قليل عند دراسة موقف غربال من الحملة الفرنسية.

عودة مرة أخرى إلى «رؤية» غربال لعمر مكرم ودوره، إذ يرى فيه زعامة تقليدية، تمثل امتدادًا لدور العلماء كواسطة بين الحكام والمحكومين، وفى نفس الوقت يُفضِل عليه المعلم يعقوب ومشروعه. ويرى غربال أن مشروع عمر مكرم يعتمد على «تهييج» الناس ودفعهم للصدام مع الفرنسيين، وأن هذا التهييج والصدام قد أدى إلى نتايج وخيمة على مصر والمصريين، فهو من ناحية حال دون استفادة مصر من «الحضارة الغربية» آنذاك، وحال من أن تؤدى فرنسا دورها وأحلامها فى مصر من ناحيةٍ أخرى، وسنتطرق إلى هذه النقطة بالتفصيل بعد ذلك. أما مشروع يعقوب فيعتمد على التعاون مع الفرنسيين لتكوين «جيش مصرى» مُدرَّب يكون أداة لاستقلال مصر عن المماليك، والدولة العثمانية، ويُفضِل غربال شخصية ومشروع يعقوب عن شخصية ومشروع عمر مكرم إذ يقول :

«هنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم.يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المُدرَّبَة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته، ولا يسهل كبح جماحه، والذى قد يصل سريعًا لتحقيق أغراض حاسمة، ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدايم المثمر».

هنا تظهر رؤية شفيق غربال «المعتدلة» أو «المحافظة»، على حسب ما تقرره أيها القارى العزيز، فغربال سليل المرحلة الليبرالية لا يتقبل فى الحقيقة بسهولة ما يمكن أن نسميه، بمصطلحات أكثر معاصرة، «صوت الجماهير». وعلينا تذكُر مدى تأثير المظاهرات فى عصر غربال على تصدع التجربة الليبرالية. إن غربال هنا متسق مع نفسه كابن للمدرسة الليبرالية «الإنجليزية المحافظة».

من ناحية أخرى لا يمكن تجاهل أن غربال، على الأقل فى ذلك الوقت، هو مؤرخ «الأسرة العلوية»، ونعلم جميعًا الصدام الحاد الذى حدث بين محمد علىّ والسيد عمر مكرم. وعلى الرغم من أهميّة الدور الذى لعبه عمر مكرم فى تولية محمد علىّ

ولاية مصر فى عام ١٨٠٥، إلا أن شهر العسل بينهما لم يدم طويلاً. إذ سرعان ما بدأ محمد علىّ مشروعه فى مصر بضرب القوى التقليدية، المماليك والعلماء، وكان من المحتم الصدام بين محمد علىّ وعمر مكرم، فالأخير لم ينس دوره فى صعود محمد علىّ، الذى لم ينس هو أيضًا هذا الدور، وكان لا بد من وجهة نظره إزاحة السيد عمر مكرم كأكبر ممثل لقوة العلماء، ومن هنا كان نفى محمد علىّ لعمر مكرم خارج القاهرة.

ولا يُخفى غربال امتعاضه من موقف عمر مكرم تجاه محمد علىّ إذ يذكر:

«وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم فى محمد علىّ كما تحكم فى خورشيد ـ الوالى العثمانى ـ من قبل. فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية».

هكذا تجمعت النظرة الليبرالية «الإنجليزية المحافظة»، بالإضافة إلى الولاء للأسرة العلوية، فى رسم «رؤية» غربال لعمر مكرم ودوره ومشروعه وتفضيل شخصية يعقوب ومشروعه عليه.

وربما تتضح أكثر الرؤية «المحافظة» لغربال عند حديثه عن « ثورتى» القاهرة الأولى والثانية. وقد وضعنا كلمة ثورة بين قوسين هنا لبيان اختلاف نظرة غربال إليها ونفى مفهوم «الثورة» عنها، إذ يصفها بأنها «فتن شعبية». ويرجع هذا كما أوضحنا لرفضه لفكرة «تهييج» الناس. ويرى غربال أن معظم العلماء رفضوا هذه «الفتن» ورأوا أنها تجر الخراب على مصر والمصريين، وتثير الفرنسيين وغضبهم، وأنه لا طايل حقيقى من ورايها. بل ويأخذ عليها أن الهدف من ورايها كان عودة مصر مرة أخرى إلى السيادة العثمانية تحت حكم المماليك. وربما نستدعى هنا مرة أخرى قصة الصراع الطويل بين محمد علىّ وأسرته من بعده مع الدولة العثمانية، فى سبيل توسيع سلطات أسرة محمد علىّ، أو من وجهة نظر «علوية» توسيع «استقلال مصر» يقول غربال:

«وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية. كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسى. وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم».

ويصل رفض غربال لنهج «الفتن الشعبية» أو «الثورات الشعبية» لذروته عندما يقول:

«تبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسى أنهم كانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفرنسى من أجل العثمانيين. وأنهم كانوا فى فتنتهم ضحية الدجاجلة كما سماهم الجبرتى الذى اختص منهم رجلاً مغربيًا لا ناقة له فيها ولا جمل. يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج».

هكذا يرفض غربال مشروع «العامة» وعلى رأسه عمر مكرم ويُفضِل عليه مشروع «الخاصة» وعلى رأسه يعقوب:

«لا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمايها وأهل الرأى فيها أثرًا لفكرة الاستقلال الوطنى. ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسى لا فترة نحس يُرجى زوالها وعود ما سبقها.بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك. ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا».

ويجرنا ذلك إلى تفهم «رؤية» غربال الليبرالى «المحافظ» تجاه الحملة الفرنسية، وبدايةً لا يُنكِر غربال أن الحملة هى بمثابة «الاحتلال»، ولكن من وجهة نظره الليبرالية المحافظة هو يحاول أن ينظر إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ يرى الوجه الحضارى للحملة الفرنسية، وهى نفسها ـ وجهة النظر ـ التى تبناها من بعده أبناء المدرسة الليبرالية، فيقول:

«لا يمكن الشك فى أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قايمة على قواعد الثورة الفرنسية أُتيح لها فى عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادى الكبير أن تحكم قطرًا زراعيًا خصبًا ذا مركز جغرافى فذ كوادى النيل وأمة عربية إسلامية ذات تاريخ مفعم بعِبَر الدهر كالأمة المصرية».

وهكذا نحن أمام أسطورة الدور الحضارى للحملة الفرنسية على مصر، هذه القضية التى أثارت وتثير ردود أفعال متباينة حولها، كان أشدها عند الاحتفال بمرور مايتى عام على الحملة الفرنسية فى عام ١٩٩٨. ولكن غربال هنا هو ابن عصره وليبراليته، وربما نتيجة رؤية غربال المحتفية بالحملة الفرنسية، فإنه يتقبل تعاون المعلم يعقوب مع الفرنسيين، ويُفضِل مشروعه عن مشروع عمر مكرم. ولكن الآن من هو المعلم يعقوب وما هو مشروعه لاستقلال مصر؟



المعلم يعقوب ومشروعه بين الواقع التاريخى والأسطورة

إن الحديث عن «الجنرال» / «المعلم» يعقوب مسألة مثيرة للجدل بين المؤرخين على كافة جنسياتهم وانتماءاتهم الدينية منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن. فمن هو هذا «المعلم» / «الجنرال»؟

فى الواقع لا نستطيع تفهم هذه «الظاهرة» المسماه بالمعلم يعقوب دون التعرض للخلفية الاجتماعية والمهنية التى أتى منها يعقوب. فمنذ الفترات الأولى بعد الفتح العربى لعب الأقباط دورًا مهمًا فى إدارة شيون مصر المالية، لاسيما فيما يتعلق بجباية الضرايب الزراعية. ونشأت نتيجةً لذلك فية اجتماعية ومهنية عُرِفَت باسم «الكتبة والمباشرين الأقباط». وحرصت هذه الفية على احتكار هذا الدور وهذه الوظايف على مر القرون، على الرغم من بعض الاعتراضات الفقهية حول دور أهل الذمة فى إدارة «الدولة الإسلامية».

على أية حال أصبح لهؤلاء «الكتبة والمباشرين» مكانة خاصة سواء على مستوى الإدارة والعلاقة بالحكام، أو على المستوى الطايفى والكنسى. فعلى مستوى الحكام، انتمى الكتبة والمباشرين الأقباط برابطة الولاء إلى الكثيرين من حكام البلاد. وترتب على ذلك ثراء هؤلاء الكتبة والمباشرين واتساع نفوذهم أحيانًا، وغضب أسيادهم الحكام عليهم ومصادرة أملاكهم والبطش بهم أحيانًا أخرى.

ومن ناحيةٍ أخرى أصبح هؤلاء الكتبة والمباشرين يمثلون «الأراخنة» أى الصفوة القبطية العلمانية ـ أى غير الدينية ـ بما يترتب على ذلك من نفوذ وهيبة داخل المجتمع القبطى. كما لعب هؤلاء الكتبة والمباشرين أدوارًا مهمة فى صناعة القرار داخل الكنيسة القبطية نفسها.

ولكن ما هى الخلفية التعليمية والثقافية والتدريب المهنى لهذه الفية المهمة فى الإدارة المالية؟ هذا السؤال فى غاية الأهمية لتفهم التكوين التعليمى والفكرى للمعلم يعقوب ـ أحد أبناء هذه الفية ـ لكى نحكم على «مشروع الاستقلال».

يبدأ هؤلاء فى مرحلة الطفولة فى الدراسة فى «الكُتاب» القبطى الذى لا يختلف فى الحقيقة عن مثيله الإسلامى إلا فى اهتمام الأقباط بتعلم قواعد الحساب، وأيضًا الاهتمام بتعلم الكتاب المقدس. وبعد ذلك يلتحق هؤلاء بالعمل فى خدمة أحد الكتبة أو المباشرين ليبدأ التدريب الحقيقى على كيفية حساب وجباية الضرايب الزراعية، لاسيما وأن هذه الحسابات كانت تتم وفقًا للتقويم القبطى لارتباطه فى التراث المصرى القديم بتنظيم الدورة الزراعية فى مصر.

فى إطار هذه الخلفية نشأ يعقوب فى ملوى بصعيد مصر، وتعلم فى الكُتاب. ولما بلغ مرحلة الشباب ألحقه والده بخدمة كاتب قبطى يتولى مسيولية جباية الضرايب لأحد المماليك. وسمحت فترة علىّ بك الكبير بالمزيد من الدور للكتبة والمباشرين الأقباط، والتحق يعقوب بالعمل لدى أحد أبرز مماليك علىّ بك الكبير وهو سليمان بك. وهنا يبدأ نجم يعقوب فى الظهور وتبدأ حوله أيضًا الأساطير وإضفاء مظاهر البطولة عليه، إذ يرى البعض أنه تعلم ركوب الخيل واستعمال السيف. ومن المعروف أنه طيلة الفترة العثمانية كان محرمًا على أهل الذمة بصفةٍ خاصة ركوب «الخيل» ويُسمح لهم بركوب «الحمير»، بل وكان ممنوعًا على غير العسكريين ـ من المسلمين ـ ركوب الخيل، وفى الأغلب كان «العالم» أو «الشريف» يركب «بغلة» دلالة على وضعه المتميز. أما استعمال السيف فهو من الفنون العسكرية التى تتطلب مرانًا طويلاً منذ الصغر، ولم يكن يُسمح به إلا للعسكر. فإذا جاز بالفعل ليعقوب تعلُم الفروسية وفنون القتال على يد المماليك فهو بالفعل حالة خاصة، ولكنه لا يرقى إلى مستوى التدريب العسكرى المملوكى أو العثمانى.

وبدأ تعرُف يعقوب على الفرنسيين أيام الحملة الفرنسية بفضل المعلم جرجس الجوهرى أحد كبار المبشرين الأقباط فى عهد بونابرت. وسنلاحظ بعد ذلك افتراق مسيرة جرجس عن يعقوب، فبينما يستمر جرجس فى الارتباط بمصر والبقاء فيها بعد خروج الحملة الفرنسية، ويرتقى بعد ذلك فى خدمة محمد علىّ، يُصِر يعقوب على الخروج من مصر راحلاً إلى أوربا فى جعبة الفرنسيين والانجليز. وبينما يُبقى

جرجس الجوهرى على وظيفته الأولى كأحد كبار جباة الضرايب، وهى وظيفة أجداده، يقوم يعقوب بتشكيل الفيلق القبطى الذى التحق بخدمة الفرنسيين كميليشيا عسكرية.

وهنا تبدأ موجة جديدة من الأساطير حول «التأريخ» للمعلم يعقوب أو «الجنرال» يعقوب. وتبدأ هذه الأساطير حول كفاءة وقوة «جيش» يعقوب وأيضًا حول أعدادهم، ففى الواقع لم يكن أغلب أفراد هذه «الميليشيا» إلا صناع وعمال يعملون باليومية فى خدمة الجيش الفرنسى فى الصعيد. كما قيل أن أعداد هذا الجيش وصلت إلى ألفين جندى، وقيل حوالى ثمانماية جندى فقط. وتحاك الكثير من الأساطير حول القلعة التى بناها المعلم يعقوب فى «منزله!!» بالأزبكية لحماية الحى القبطى فى «المقس» من هجمات الجيش العثمانى القادم لمصر، أو من هجمات بعض المتطرفين المسلمين. كما يُحيط بالعلاقة «الخاصة» بين الجنرال الفرنسى ديزيه والمعلم يعقوب الكثير من علامات الاستفهام ـ وأيضًا التكهنات ـ هل هى علاقة «فكرية» اطلع من خلالها يعقوب على أفكار الثورة الفرنسية «الحرية،الإخاء والمساواة»؟ أم علاقة «جسدية» كما يُشير البعض لذلك؟

لقد رفض يعقوب الأمان الممنوح له من جانب العثمانيين بالبقاء فى مصر بعد خروج الحملة، وأصر على الرحيل مع نفر قليل من أتباعه. وهنا ندخل فى فصل جديد من فصول «الأساطير المؤرخة» عن يعقوب، إن الأيام القليلة التى قضاها يعقوب على ظهر المركب قبل وفاته فى عرض البحر، تمثل بحق ذروة تصاعد الحدث الدرامى فى «الأساطير المُؤَسِسة» حول ظاهرة المعلم يعقوب.

إنه من السهل النظر إلى يعقوب على أنه «دون كيشوت» المصرى الذى يرحل إلى أوربا مطالبًا إياها بتقبُل مشروعه الخاص باستقلال مصر عن الدولة العثمانية، وضمان أوربا لهذا الاستقلال. لكننا نعتقد أنه لا يمكن تفسير هذا الأمر بمثل هذه البساطة.

ففى الواقع شارك الفارس لاسكاريس ـ مُرافِق يعقوب على المركب ـ فى كتابة الفصل الأخير والمثير فى «الأساطير المُؤَسِسة» لظاهرة «الجنرال» يعقوب. ولاسكاريس هذا هو فى الواقع أحد «فرسان القديس يوحنا» فى مالطة، مال إلى

جانب بونابرت فى أثناء غزوه لمالطة. هذا الرجل ـ لاسكاريس ـ الذى يصفه لويس عوض قايلاً: «كان لاسكاريس غريب الأطوار مصابًا بنوع من الهوس أو الخيال المسرف».

وفى الحقيقة أن ما نعرفه عن «مشروع الاستقلال» المنسوب ليعقوب هو منقول عن رواية لاسكاريس بعد وفاة يعقوب. وما ذُكِر عن أن يعقوب ومن معه هم «الوفد» المُشكَل عن جموع عقلاء المصريين مسلمين وأقباط، الذين اجتمع معهم يعقوب فى مصر قبيل رحيله من مصر، لهو أمر يبعث على السخرية، فإن أى متخصص فى تاريخ هذه الفترة سيستبعد من الأساس فكرة تكوين «وفد»، أو حتى أن يُوَّكِل عقلاء المسلمين ـ حسب عقلية ذلك الزمن ـ أحد «أهل الذمة» للتحدث باسمهم، فما بالنا إذا كان هذا المتحدث هو «الجنرال» يعقوب بماضيه «المُختَلَف عليه» مع الفرنسيين.

إن المتمعن جيدًا لأفكار «مشروع الاستقلال» يدرك تمامًا أنها من «بنات أفكار» الفارس لاسكاريس بتركيبته النفسية والعقلية الغريبة والغريبة أيضًا، حيث وصف نفسه بأنه «قُدِّر لبعض الناس أن يصنعوا الدساتير، وقُدِّر لآخرين أن يصنعوا الأطفال. أما هو فقد قُدِّر له أن يكون من صانعى المشروعات وأنه كثيرًا ما يضع نفسه فوق العالم المادى والروحى». وقد وصفه الجنرال مينو بأنه مصاب بجنون العظمة.

على أية حال زادت الوفاة المفاجية ليعقوب من الحبكة الدرامية للأساطير المُؤَسِسة المنسوجة حوله، وسمحت للاسكاريس بتقديم هذا المشروع الذى لا يتفق مع معطيات العصر آنذاك، وهو المشروع الذى لم يعيره أحد التفاتًا فى أوربا آنذاك.

ولكن الجو الأسطورى المنسوج حول يعقوب يخلق من جديد أساطير جديدة حوله، حيث ركز بعض المؤرخين الأجانب مثل «دوان» عليه وعلى مشروعه، نظرًا لأن دوان هو المؤرخ الرسمى للقصر الملكى المصرى الذى كان يسعى لايجاد مشروعية لاستقلال محمد علىّ عن الدولة العثمانية، فضلاً عن تعظيم دور الحضارة الغربية فى تفتح ذهن أحد المصريين لفكرة استقلال مصر.

وعلى الجانب الآخر تأتى الإشادة من جانب بعض كبار المؤرخين المصريين ـ مثل شفيق غربال، محمد صبرى وصبحى وحيدة ـ بيعقوب ومشروعه متسقة تمامًا مع ظروف نشأة المدرسة التاريخية المصرية الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ وسقوط الدولة

العثمانية، واستقلال مصر عام ١٩٢٢، ومحاولة تأسيس «مرجعيات» تاريخية لفكرة الاستقلال.

أما تناول لويس عوض لمسألة المعلم يعقوب فهى تأتى فى إطار مشروعه «المشاغب» لتاريخ الفكر المصرى. كما لا يمكن الفصل بين معالجة لويس عوض لمشروع الاستقلال المنسوب ليعقوب وبين المناخ الناصرى آنذاك، والذى فى ظله ظهرت دراسة لويس عوض. فهى محاولة لتأصيل «الوطنية» و«الاستقلال» ولكن من مفهوم خاص جدًا. ولكننا لا نتقبل الربط الطايفى الذى حاوله البعض بين يعقوب ولويس عوض، لأنه فى الحقيقة لا يمكن التعرض له بشكل علمى.

وأما من ناحية أغلبية المؤرخين الأقباط الذين عالجوا موضوع المعلم يعقوب، ففى الحقيقة كانوا يعانوا من مشكلة تهميش «الشخصية القبطية» فى الكتابة التاريخية المصرية. من هنا كان رد فعل البعض «المبالغة» فى التأريخ ليعقوب، والوقوع فى شرك الأساطير حوله، وأخر هؤلاء على سبيل المثال نسيم مجلى الذى رأى فى يعقوب «ظاهرة فذة فى تاريخ مصر»، بينما هناك من معاصرى يعقوب من هم أكثر أهمية منه وأكثر ارتباطًا بمصر، مثل الأخوين إبراهيم وجرجس الجوهرى.

ولعل أخر الدراسات الجادة عن المعلم يعقوب والفارس لاسكاريس هى دراسة المؤرخ الفرنسى هنرى لورنس «المغامر والمستشرق»، والتى درس فيها دور لاسكاريس فى الشرق مقارنةً بدور لورانس الشهير، والذى نعرفه جميعًا من خلال الفيلم الشهير «لورانس العرب»، إذ يرى فيهما نموذج للمغامر المُصاحِب والضرورى للاستعمار فى الشرق. وأيضًا نموذج للمغامر الذى تُنسج حوله الأساطير المخالفة للواقع التاريخى.

فلاسكاريس لا يقتصر دوره المزعوم فى إحياء القومية المصرية ومشروع استقلال مصر على علاقته مع المعلم يعقوب، وإنما نجد له مغامرات مشابهة مع الموارنة فى جبل لبنان، ومشروع مشابه لاستقلال جبل لبنان «إعادة ميناء بيروت إلى لبنان ومساعدة هذا الجبل على نزع نير باشا سوريا وفلسطين، ويجب على الأمير بشير، عبر رسالة موجهة إلى إمبراطورنا ـ الفرنسى أن يُسارع إلى حمايته». وهكذا نجد مشروع آخر مزعوم للاستقلال يأتى على لسان الأمير بشير الشهابى فى عام ١٨٠٦.

ويُلخص «لورنس» لاسكاريس وأسطورته قايلاً:

«ومن ثم فحياة لاسكاريس حياة فاشلة وموته فى نهاية الأمر ـ فى مصر فى عام ١٨١٧ ـ لا يترك غير صدى طفيف ودوره فى التاريخ يمكن أن يبدو هينًا. لكن الأسطورة كما هى الحال غالبًا مع المغامرين، سوف تؤدى تدريجيًا إلى حجب الواقع».

ويقدم لورنس سببًا وجيهًا لصناعة أسطورة الجنرال يعقوب بعد ثورة ١٩١٩:

«لعبة الذهاب والإياب هذه نفسها تتكرر فى عام ١٩٢٤، عندما يكشف جورج دوان عن مذكرة البعثة المصرية ـ يقصد رحلة المعلم يعقوب إلى أوربا ـ فالأثر التاريخى بالغ القوة، والمسألة ليست أكثر ولا أقل من ظهور موقف مشابه للموقف فى عام١٩١٩، تشكيل وفد من أجل مؤتمر الصلح، والشىء المهم يجىء ـ من وجهة نظر مؤرخى الفترة ـ من توقيع يعقوب، أنه أول مصرى يتحدث عن الأمة المصرية فى نص مؤرخ تاريخيًا».

لكن لورنس يرفض هذه النظرة «القومية» ويؤكد:

«أننا لا نجد الفكرة المصرية فى عصر يعقوب».

فى الحقيقة لم يكن يعقوب سوى مغامرًا مُعبِرًا عن فية ضيبلة من الراديكاليين الأقباط، مثلما كانت هناك فية ضبيلة متطرفة من المسلمين أحرقت بعض مساكن الأقباط عند مجىء الحملة الفرنسية. ولا يُعتبر يعقوب ـ فى الحقيقة ـ الممثل الحقيقى للشخصية القبطية الحقيقية، إذ يرى كلاً من يعقوب روفيلة وإيريس حبيب المصرى أن يعقوب «سار فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه، فإنه فضلاً عن مخالفته لهم فى الزى والحركات، اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية. كما أن رجال الدين لاسيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله».

هذا هو الموقف الوطنى الحقيقى للكنيسة المصرية «القبطية» ولجموع الأقباط وهو موقف لا يختلف قط عن التيار الوطنى العام «المصرى». ولكن المشكلة فى التاريخ أن التطرف وجو الأساطير الذى يُنسج من حوله، يحول أحيانًا دون الرؤية النافذة للأمور.

شفيق غربال

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر

فى سنة ١٨٠١

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس
ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١

قدوم الفرنسيين

فى الأيام الأولى من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ نزل بأرض مصر جيش فرنسى يقوده نابليون بونابرت. ولم تكن هذه أول إغارة لهم عليها. ففى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حاولوا امتلاكها، وتلاقت صفوة فرسانهم بمماليك مصر فى أكثر من موقعة.

وكان الفرنسيون فى تلك الأيام الغابرة ـ كما كان أهل الغرب عامة ـ أقل حضارة وإتقانًا لفن الحرب كما مارسته العصور الوسطى، وكان الفارس من الفرنجة صورة سقيمة من المملوك الشرقى، فكانت عاقبة تلك الإغارات الفشل.

ومضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى ـ كما عرفه سان لويس وبيبرس ـ إلى الرجل الغربى الذى سيعرفه مراد والألفى والبرديسى فى ١٧٩٨. خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعى وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض. خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسى والاقتصادى الجديد. أما مماليك مصر فكانوا فى ١٧٩٨ كما كانوا فى ١٢٥٠ فى الحرب والتفكير. أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلالهم ودولتهم وما كانوا يجبونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة فى أرضهم. كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء وظلوا فى كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان أباؤهم.

الاحتلال الفرنسى

اصطدم المماليك فى صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذى عرفوه أيام الحروب الصليبية. وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه «من أنه إذا جاءت جميع الإفرنج

١٧٩٨ ـ ١٨٠١ لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم[١]» وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر.

وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلًا على ثلاثة أعوام. وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية. وضيق عليهم أثناءها حصار بحرى إنجليزى. وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك. وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبايية عددًا لا يستهان به. وظل مراد ومماليكه ومن انضم إليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهورًا عديدة ينازعونهم ملك الصعيد شبرًا شبرًا وأخذت تبطل التجارة البحرية ويقل ورود قوافل دار فور وسنار وفزان وبرقة وغيرهما من بلاد المغرب. ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا[٢] وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوروبية من جديد ضد فرنسا وإرغامها على التخلى عن فتوحها فى إيطاليا وغيرها. وحتى مصر نفسها، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد اعتزم ألا يتخلى عنها، وأرسل نحوها من ناحيتى البحر والشام جموعًا من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها، ولا بد، لها مع الزمن أثر.

لا بد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسى. ولا بد إذن من الفصل بين أمرين مختلفين تمامًا: الحكم الفرنسى كما كان والحكم الفرنسى كما يمكن أن يكون لو خلص مما انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الزمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث.

ولا يمكن الشك فى أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قايمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها فى عصر بدأ فيه

---

(١) الجبرتى: «عجايب الآثار» حوادث المحرم ١٢١٣ جزء ثالث ص٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢.

(٢) يتجلى هذا الكره للإقامة فى مصر فى أكثر ما تركه رجال الحملة من مذكرات. ويبدو واضحًا أتم الوضوح فيما كتبه بعض منهم لأهلهم فى فرنسا فى رسايل استولى عليها الإنجليز ونشرتها الحكومة الإنجليزية فى سنتى ١٧٩٨، ١٧٩٩ فى أجزاء ثلاثة تحتوى على الأصول وترجمتها إلى الإنجليزية ولم تهمل الحكومة التعليق اللازم عليها من قلم فرنسى من المهاجرين. وقد راجعت هذه الأجزاء على المخطوطات فى دار السجلات فى لندن ووجدتها صحيحة مطابقة للأصل. راجع ("Original Letters from Army of Bonaparte intercepted by the Britsh fleet" 3 vol. London 1798-1799).

الانقلاب الاقتصادى الكبير أن تحكم قطرًا زراعيًا خصبًا ذا مركز جغرافى فذ كوادى النيل. وأمة عربية إسلامية ذات تاريخ مفعم بعبر الدهر كالأمة المصرية. لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهدًا صادقًا فى تنمية الموارد بتنظيم الرى وضبط النيل. وقد كتب بونابرت فى مذكراته فصلًا رايعًا عن ضبط النيل بإنشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا(١). ولو دامت مدتهم فى مصر لعملوا كل ما يستطيعون للاستفادة من مركز مصر الجغرافى، ولو صلوا بين البحرين الأبيض والأحمر ـ وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير(٢). واستعمار مصر كان لا بد أن يؤدى إلى اتساع النفوذ الفرنسى على ساحلى البحر الأحمر وإلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام. وأن يؤدى أيضًا للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخـل والمخـرج لتلك الأرجـاء الأفريقية الواسـعة وحل اللغز الجغرافى القديم. وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد على. مما يدل على أن خطط الحكومات ليست مما يستنبط من بطون الكتب ولا مما تجود به القرايح، إنما هى مما يمليه الواقع الجغرافى ويكرره التاريخ فى أدواره المتباينة.

ولو دام الاحتلال الفرنسى لسلك نحو المصريين مسلكا يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم، ثم يعمد بعد هذا التحسين إلى إبطال النمو ـ أو إلى إبطاله فى بعض النواحى وتوجيهه فى الاتجاه الذى يريد. ولم يكن بد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأبتر بحكم الإنسانية المشتركة وبحكم منفعتهم: يقاوم الأوبية بإنشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والمحاجر الصحية حفظًا للقوى العاملة فى الإنتاج الزراعى الذى يغذى الخزانة العامة ويموّن التجارة، ومنعًا لانتقال المرض إلى الفرنسيين. يصلح الأداة الحكومية وينوع الإدارات صيانة للأمن وضبطًا للأموال العامة. ويستلزم هذا إصلاح نظام الجباية ونظام الضرايب. ويتعبه إلغاء الالتزام.

---

(١) تجد هذه المذكرات فى Napoleon: "Notes ecrotes sur l'Egypte", "Voyage du Marechal Duc de Raguse", Paris 1873 t. IV, pp. 261-281.

انظر أيضا Bourienne: "Memoires", Paris 1829, t. III, pp. 276-282

Mouriez: "Histoire de Mehemet Ali", t. III, pp. 84-86 note.

(٢) Description d'Egypte, Etat Moderne, t. I. vol. V.

واستقرار ملكية الفلاح للأرض(١). يفتح الأبواب لرءوس الأموال الفرنسية والنظم التجارية والمعاملات الغربية. ويؤدى هذا لتنظيم القضاء على أساس غربى ولدخول القوانين الغربية. ويعنى بإعداد طايفة من أبناء البلاد تسد حاجة الإدارة من صغار الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسى لاعتمد بعض الاعتماد فى الدفاع عن البلاد على جيش وطنى من أبنايها(٢).

ولو دام الاحتلال الفرنسى لاحتاط أشد الحيطة فى كل ما له علاقة بالتفكير الدينى من المسايل الاجتماعية وموضوعات البحث العلمى. فالحاكم الغربى يحب أن تكون قواعد الإنتاج الاقتصادى غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الإنتاج والزيادة مما يهمه. ولكنه يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعى والبحث العلمى الحر. وذلك لأسباب: منها حرصه على ألا يظهر للعامة فى مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين، ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لا بد وأن تؤدى فى النهاية إلى الرغبة فى الاستقلال. ومنها الميل إلى المحافظة على المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ باللطايف والتحف.

والمتأمل فى أحوال الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر يتحقق من صدق ما ذهبنا إليه. فإنه يجد أن أشد هذه الأمم تطرفًا فى الهدم والتغيير الأمة التركية العثمانية والأمة الفارسية، وهما الأمتان اللتان تخلصتًا تخلصًا تامًا من حكم الغرب السياسى.

أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتلال الفرنسى - لو أن أيامه دامت - أن يبقى حكم القرى على ما عرفته مصر فى عصورها المختلفة فى أيدى العمد والمشايخ،

---

(١) راجع مشروع الجنرال مينو فى Rigault: "Le General Menou", pp. 254-9.
ومذكرات نابليون فى Napoleon: "Campagnes d'Egypte" vol. I, p. 239 and vol. II, p. 149.
"Correspondance de Napoleon", t. XXX, pp. 493-496.

(٢) كتب نابليون فى مذكراته:
"Il faut accoutumer insensiblement le pays a la levee d'une cons croption pour recruter l'armee de terre et l'armee de mer".
ثم أخذ بعد هذا يصف عناصر هذه القوة الحربية ويشرح رأيه فى ما يجب أن يكون عليه زى رجالها إلخ
"Campagnes d'Egypte": vol. II, pp. 151, sq. voir aussi correspondance de Napoleon, vol. XXX, pp. 85-86.

وأن يعهد لفرنسين فى إدارة الأقاليم وأن تسود المركزية الشديدة. وأن يبقى الفرنسيون على الدواوين التى أنشأها فعلًا بونابرت ولم يرم بها إلى خلق النظام البرلمانى كما توهم البعض، فبونابرت لم يكن ممن يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر. بل رمى بها إلى إنشاء وسايل تمكنه من الاتصال بالزعماء المصريين وتفهم ما يجرى فى نفوسهم وتفهمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى لا يبقى مجال لدس الدساسين ولا لسوء الفهم[١].

المصريون والحكم الفرنسى

هذا بعض ما نتصوره عن تطور الحكم الفرنسى فى مصر لو استقام للفرنسيين أمرها. وليس هذا التصور مما يخلو من الفايدة التاريخية أو مما لا يقوم على أساس من الواقع. فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت[٢] وغيره من نواياهم ومما شرعوا فى تحقيقه فعلًا ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسى فى غير مصر من الأقطار الإسلامية لكن من الزمن لم يتسع لتحقيق ما صورناه. ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر ـ بونابرت وكليبر ومينو ـ أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم. ولم يكن ما قام به أولهم بونابرت وثالثهم مينو من التجارب الإدارية الأداة الحقيقة لحكم البلاد، ولم تتغير فى أيامهم كلها طرق الجباية ولا الضرايب ولا العمال. بل ظلت كما كانت أيام المماليك. ولذلك لم تكن الأعوام الثلاثة التى قضاها الفرنسيون فى حكم مصر عهدًا

---

(١) كتب نابليون فى مذكراته:

"Nous avons besoin, pour les (les peuples) diriger, d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiront eux-mêmes. J'ai préféré ces ulimas et les docteurs sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles proviennent des idées religieuses; 3e. parce que les ulimas ont des moeurs douces... sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays... ne savent pas monter à cheval, n'ont pas l'habitude d'aucune manoeuvre militaire, sont peu propres à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai interessés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple, j'en ai composé les divans de justice..."

Napoléon: "Campagnes d'Egypte". Vol. II, pp. 151 sq. voir aussi "Correspondance" vol. XXX, 83-4.

(٢) اقرأ أيضًا ما كتبه نابليون تحت عنوان «ما يكون من أمر مصر تحت الحكم الفرنسى» فى الفصل الثانى من مذكراته عن الحملة

"Correspondance de Napoleon. t. XXX, pp. 428-430".

سعيدًا لسكانها. حقيقة أن المصريين اعتادوا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتادها أهل الريف وأهل الحواضر، وعرفها بصفة خاصة أهل القاهرة. وكانت الانقلابات التى عرفوها مما يصحبه الشىء الكثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف وإعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرايب والمغارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد. لا يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم: فمثلًا يتغلب «علىٌّ الكبير» على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه؛ ثم يتغلب عليه أبو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك.

ولم يكن للمصريين من نصيب فى هذه الانقلابات إلا عمال الإدارة المالية من الأقباط ورؤساء القبايل العربية والشيوخ من العلماء: فالفريق الأول بحكم اضطرار الأمراء جميعًا لاستخدامه، يعمل للمنتصرين كما عمل للمنهزمين. ورؤساء العربان بسبب قوتهم الحربية قد يرجحون كفة طايفة من الأمراء على كفة خصومها. والشيوخ العلماء بحكم تصدرهم ونفوذهم فى الناس وتحليهم بصفات الفضل والاعتدال. يلجأ إليهم الناس للوساطة فى رفع الحيف إذا ضاقوا به ذرعًا. وقد يحتكم إليهم المتخاصمون من الأمراء. وكان تدخل الشيوخ عادة لرفع الضيم وإحلال الويام محل الخصام أو للتخفيف من عنف الانقلابات.

أما الحكم الفرنسى فكان انقلابًا من نوع لم يعرفه المصريون. إذ لما زال حكم مراد وإبراهيم حل محلهما بونابرت ولم يكن مسلمًا ولا مملوكا. ومهما قيل فى قلة تدين الفرنسيين فى تلك فهم غير مسلمين قد تصل بهم الضرورة الحربية أو ما ظنوه الضرورة الحربية إلى انتهاك الحرمات الإسلامية.

كذلك ترك الوالى العثمانى مصر عند الإغارة الفرنسية وزال بغيابه مظهر التبعية للسلطان العثمانى خليفة المسلمين، وسمع المصريون عن تبعية بلادهم لدولة غربية فرنجية سمى لهم نظامها بأسماء لا تدلهم تجاربهم السياسية على معانيها، فنشر عليهم منشور «من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية»(١) وأرخت لهم الحوادث بشهور غربية من سنين تبدأ «من انتشار الجمهور الفرنساوى»(٢).

وكانت للفرنسيين طرقهم فى مخالطة النساء. وكانت هذه الطرق مما تكرهه

---

(١) الجبرتى. حوادث المحرم ١٢١٣ ـ جزء ثالث ص٤.
(٢) انظر مثلا الجبرتى: حوادث المحرم ١٢١٥ ـ جزء ثالث ص١٢٢.

الخاصة كرهًا شديدًا. وأدى انتشار العسكر فى أنحاء المدن والأقاليم، وتشتت شمل أسرات الأمراء وانطلاق جواريهم عقب تركهم القاهرة، إلى ضروب غير مألوفة من الفساد والرذيلة.

جاء فى الجبرتى فى حوادث ربيع أول سنة ١٢١٤ «وفى يوم الاثنين رابع وعشرينه كان وفاء النيل المبارك.... ووقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف، وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورزالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله وإن لم يكن من أمثاله».

إذا كان رب الدار بالدف ضاربًا   فشيمة أهل الدار كلهم الرقص[1]

وجاء فيه أيضًا فى ختام حادث سنة ١٢١٥: «ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسايهم وهن حاسرات الوجوه.... ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهن وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن منهم لخضوعهم «أى الفرنسيين» للنساء وبذل الأموال لهن وكان ذلك التداخل أولًا مع بعض حشمة وخشية عار ومبالغة فى إخفايه. فلما وقعت الفتنة الأخيرة وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء، والبنات صرن مأسورات عندهم فزيُّوهن بزى نسايهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالمرة وتداخل مع أوليك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوز الفرنسيس ومن والاهم، وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها فطرحن الحشمة... واستمان نظراؤهن (لمخالطة الفرنسيين)... وخطب الكثير منهم بنات الأعيان... فيظهر حالَّة العقد الإسلام... لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع

(١) الجبرتى، حزء ثالث ص ٨١، ٨٢.

حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهن ومشين معهن فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية... وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرقون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام.. ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب، والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر وصحبتهن آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من المجون والهزل. وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون.... ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنايهم وتقليد كلامهم الشىء الكثير. وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن برغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبوا إليهم أفواجا فرادى وأزواجا فنططن الحيطان وتسلقن إليهم الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك[١]».

وفى أيام الاحتلال الفرنسى حرر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة، كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطًا من شروط بقاء الإسلام. وقد عرف بونابرت ما فى هذا التحرر من إساءة للشعور الإسلامى وبيَّن فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بيانًا واضحًا فقال: «لا فايدة فى إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامى إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية. وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعًا وأكثر احترامًا لكل ما يتعلق بالإسلام وبالمسلمين مما كانوا فى الماضى[٢]» ونجد فى الجبرتى تأييدًا لصدق هذه الرغبة. فيذكر فى حوادث رمضان سنة ١٢١٣ «رجوع نصارى الشوام إلى لبس العمايم السود والزرق وإلى ترك لبس العمايم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك، ونبهوا (أى الفرنسيون) أيضًا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولًا، ولايتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان[٣]...».

(١) الجبرتى: جزء ثالث ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) "Correspondance de Napoleon", t. XXX, p. 84.

(٣) الجبرتى: جزء ثالث ص ٤٧.

لم تستمر الحالة على ذلك. ولم يكن استمرارها مما يمكن فى ظل حكم غربى جمهورى شعاره المساواة والحرية الدينية. وما كانت الاعتبارات السياسية لتستطيع محو هذا الشعار تمامًا. هذا إلى حاجة الاحتلال الفرنسى لغير المسلمين: لأموالهم ودرايتهم بأحوال البلاد ونظمها وعادات أهلها ولإمكان الوثوق بهم بفضل اتفاق المنافع.

فعاد غير المسلمين إلى ما عبر عنه الجبرتى بقوله: «ومن الحوادث» ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين[1]...».

ولم يكن للحكم الفرنسى فى مدته القصيرة، وفى ظروف الحرب والفتن الملابسة له، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الإغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعى. فقد كان حكمًا عسكريًا شديدًا عنيفًا. ولم يكن الإصلاح الذى فكر فيه الفرنسيون، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها، والبحث العلمى الذى شرعوا فى إقامة قواعده مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل. ذلك لأن النظم الحكومية التى اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق فى آخر القرن الثامن عشر كانت ترمى لأغراض ثلاثة أساسية: جمع الأموال المفروضة، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة، واستتباب الأمن. وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة فى أحوال الرعية؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات. وإذا شينا إجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكى. قلنا إنه يمتاز بقلة التدخل الحكومى كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف. ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها فى كل ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية. ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسايل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه. فإن ارتباك الإدارة الذى نجم عن الانقلابات المتتابعة، وسوء ذمة العمال، وفوضى السجلات،

---

(١) الجبرتى: فى حوادث شعبان ١٢١٣. جزء ثالث ص٤٦.

وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفروض المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية.

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون فى ١٧٩٨ بالتدخل الحكومى وبما يصحبه من النظم الدقيقة. ولا أن يعدوها ـ كما نعدها الآن ـ ضمانًا لحقوقهم. لأنهم على العكس كرهوا ضبط الدفاتر، واعتبروه اشتطاطًا فى الطلب، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسايل لمنع الأمراض، كتخطيط المدن من جديد، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق، وكنس الطرقات، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبدادًا لا يطاق وفضولًا لا يفهم.

كره المصريون الحكم الفرنسى وقاوموه. ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين. وقام الفلاحون فى الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة. وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفى لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب فى القرن التاسع عشر. والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثًا إيجابيًا واحدًا، هو الرغبة فى العودة لما ألفه الناس. ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالًا. إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية.

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية. كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسى وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم. فكان موقفهم فى أيام الاحتلال الفرنسى موقفهم فى الانقلابات الماضية إلا أن منهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسى وإعادة الحالة التى سبقته. يذكر التاريخ مثلًا للسيد عمر مكرم الذى ترك مصر عند الاحتلال الفرنسى واشترك فى ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثمانى لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش. وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب فى قيام العامة على خورشيد باشا الوالى العثمانى وتنصيب محمد على واليًا على مصر. وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية فى مقاومة الظلم[١]. ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان سعيًا لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسى. وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن

---

(١) الجبرتى: فى حوادث صفر ١٢٢٠ جزء ثالث ص ٣٥٢.

يتحكم فى محمد على كما تحكم فى خورشيد من قبل. فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية[١].

وكان السيد أحمد المحروقى ممن ظهر أيضًا فى فتنة القاهرة الثانية. ولكنه لم يتصف بصفات الزعامة التى ظهرت فى السيد عمر مكرم مثلًا. بل كان رجلًا من رجال المال من نمط فوكيه ومن يماثله فى أيام الملكية الفرنسية. وأصدق وصف له قول البرديسى له «مثلك من يخدم الملوك»[٢].

وظهر فى هذه الفتنة أيضًا السيد السادات. وكان من أكثر العلماء نفورًا من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعيًا لإعادة الحكم العثمانى. ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة المرج أو هليوبوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحمسوهم. فكتب لعثمان كتخدا الدولة كتابًا جاء فيه: «ألزمتم الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ فى النهب غاية الغايات، فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى... أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور»[٣].

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة ـ كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسى ـ أنهم كانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفرنسى من أجل العثمانيين. وأنهم كانوا فى فتنتهم ضحية «الدجاجلة» كما سماهم الجبرتى الذى اختص منهم رجلًا مغربيًا لا ناقة له فيها ولا جمل. يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج[٤].

* * *

(١) الجبرتى: فى حوادث جمادى الأولى والثانية سنة ١٢٢٤ جزء رابع ص ١٠٢ ـ ١٠٥.
(٢) ترجمة المحروقى فى الجبرتى جزء ثالث ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦.
(٣) الجبرتى: حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٨.
(٤) الجبرتى: حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٤، ١٠٥.

الجنرال يعقوب

«وإذن فلا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمايها وأهل الرأى فيها أثرًا لفكرة الاستقلال الوطنى. ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسى لا فترة نحس يرجى زوالها وعود ما سبقها؛ بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك. ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا[١]: موضوع هذه الرسالة.

لا أحب أن أغلو فأزعم أن يعقوب فهم تمامًا كل الاحتمالات التى انطوى عليها هدم النظم القايمة فى مصر وحكم أمة غريبة لها أو أنه تحول فى هذه الأشهر القليلة التى قضاها مخالطًا للفرنسيين من جاب من جباة الأموال؛ نشأ ودرج فى بيت من بيوت الأمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى داع من دعاة الحركات الوطنية التى يعرفها الغرب فى القرن التاسع عشر. بل أجد يعقوب يحتفظ ـ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ـ ببعض صفات الجباة وعمل الإدارة المالية من أبناء طايفته فى ذلك الوقت[٢]. ولكنه رغم ذلك تأثر تأثرًا بينًا باتصاله بالفرنسيين وبالغرب وكون رأيًا خاصًا عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدى إليه ولا يشاركه

---

(١) هناك ترجمة ليعقوب فى كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزى تادرس (جزء ثاث ص ١٠ ـ ١٦). وفيها أغلاط. أهمها ما جاء عن موته ومحل دفنه. وليس فى هذه الترجمة تقدير حقيقى لسياسة يعقوب وآرايه وموقفه عند الجلاء الفرنسى ـ هناك أيضًا ترجمة أخرى فى كتاب تاريخ الأمة القبطية تأليف يعقوب بك نخلة رفيله (ص ٢٨٩ ـ ٢٩١) وهذه الترجمة أهم من السابقة إذ سجل فيها المؤلف ما سمعه عن يعقوب من المعمرين من الأقباط. وأخيرًا نشر فى سنة ١٩٢١ المسيو "Gaston Homsy" وهو فرنسى يتصل نسبة بيعقوب مؤلفًا باللغة الفرنسية اسمه (Le general Jacob et l'expedition de Bonaparte en Egypte) وهذا الكتاب رغم عيوب خطيرة فى ترتيبه واستنتاجاته لا يخلو من فوايد. إذ جمع فيه المؤلف الكثير مما جاء عن يعقوب فى مؤلفات أهل الحملة ونقل عن السجلات الرسمية فى مارسيليا وثايق مختلفة خاصة بأسرة الجنرال. ومن النقط الهامة التى حققها المسيو همصى تاريخ موت يعقوب وموضع قبره فى مارسيليا والسيف الذى قلده إياه الجنرال "Desaix". وعن كتاب المسيو "Homsy" نقل أعضاء لجنة التاريخ القبطى فى «بتاريخ الأمة القبطية» (ص١٦٩ ـ ١٧١) ما كتبوه عن يعقوب ولا حاجة بنا للقول إن المسيو همصى لا يعرف شيئًا عن الوثايق السياسية الخاصة بمشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١. أما عن اسم يعقوب فقد اكتفى مؤلفو الحملة الفرنسية المعاصرون بذكر اسم الأول فقط ولكنه يرد يعقوب حنا "Jacob Anna" فى الوثايق التى استخرجها همصى من سجلات مارسيليا ـ راجع شهادة وفاته فى همصى ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) تجد إشارات «المناورات مالية» من جانب يعقوب فى خطاب من لاسكاريس للجنرال مينو نشره مسيو أوريان فى رسالته عن لاسكاريس فى مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٨٧.

فى هذا الرأى الزعماء من أبناء طايفته، وقد خدموا الاحتلال الفرنسى كما خدموا الانقلابات. السابقة، ولا أهل الرأى من مواطنيه المسلمين، وقد شرحنا موقفهم من الحكم الفرنسى.

يرد ذكر يعقوب فى تاريخ الجبرتى فى أكثر من موضع. ويرد ذكره فى كل هذه المواضع مقرونًا بأعمال تمنع القارى من أن يظن به خيرًا وتمثله فى صورة المتفانى فى خدمة الاحتلال الفرنسى.

يذكر الجبرتى عنه تأييده الحكم الفرنسى أثناء ثورة القاهرة الثانية، بينما الرؤساء الأقباط الآخرون بمن فيهم أكبرهم جميعًا جرجس جوهرى يدارون الثوار ويمدونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفًا على حركتهم[1]. «أما يعقوب ـ كما سجل الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢١٤ ـ فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادًا كبيرًا بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه»[2].

ويرد ذكره أيضًا فى وصف ما حاق بأهل القاهرة من الشدة فى جمع الغرامة المالية التى ضربها عليهم كليبر بعد إخماده الفتنة، فيقول الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤: «وكَّل كليبر يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء»[3].

زاد نفوذ يعقوب فى الأيام التالية لفشل الثورة فى القاهرة. وزاد فى تلك الأيام التالية لفشل الثورة والسابقة لقتل كليبر. زهو الأقباط وخيلاؤهم، أو على الأقل زهو من كان يعمل للحكومة الفرنسية منهم. وترى امتعاض المسلمين ظاهرًا فى الجبرتى فى أكثر من موضع: «منعوا المسلمين من ركوب البغال سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم وفى كل وقت[4]». وأيضًا، «وتطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٠١.
(٢) الجبرتى جزء ثالث ص ١٠١.
(٣) الجبرتى جزء ثالث ص ١١٣.
(٤) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤.

للصلح مكانًا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين[١]». وبين الجبرتى أن تعسف الفرنسيين فى الطلب كان بإرشاد القبطة... «لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال ونزل كل كبير منهم إلى أقاليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز «أى المماليك» البطلة وغيرهم، والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحجاب، وتقاد بين يديه الجنايب وبالبغال والرهوانات والخيول المسوَّمة والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة، ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين من القبط أيضًا بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسين والطوايف والجاويشية، والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب، وخصوصًا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع النكال، وخاف من بقى فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم فى التشفى من بعضهم وما يوحيه الحقد والتحاسد الكامن فى قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه وما كنا بمهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون[٢]».

ويصف الجبرتى اهتمام يعقوب بتحصين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية، فى الأيام الأخيرة من العهد الفرنسى. فيقول فى حوادث المحرم سنة ١٢١٦: «فى عشرينه توكل رجل قبطى يدعى عبد الله من طرف يعقوب يجمع طايفة الناس للعمل فى المتاريس، فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم، وسب وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قايمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة. ثم

(١) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤.

(٢) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٨، ١١٩.

فردوا «كذا» على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة، وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة[١]».

«ولم يكتف يعقوب بكل هذا. بل نظم جيشًا من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين. وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة[٢] فقد كان يعقوب صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين. وقلده كليبر قيادة هذا الجيش ملقبًا إياه بلقب أغا[٣]. وفى عهد قيادة مينو رقى يعقوب جنرالاً ومنح براءة هذا اللقب[٤]». وقد وصف الجبرتى هذا الجيش الوطنى ـ نلاحظ أنه أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة ـ فى كلامه عن حوادث المحرم سنة ١٢١٥: «وفيه طلبوا عسكرًا من القبط فجمعوا منهم طايفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر وأضافوهم إلى العسكر»[٥]. ثم قال فى كلام عام عن السنة كلها: «ومن حوادث هذه السنة أن يعقوب لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبط جمع شبان القبط وحلق لحاهم (وإن احتفظ هو بلحيته) وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رءوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر، وبنى له قلعة وسوَّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام، وكذلك بنى أبراجًا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقان للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رمَّه الفرنساوية، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلًا ونهارًا وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية»[٦].

---

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٨٨.

(2) Homsy: Le general Jacob, p. 101.

(3) Homsy: Op. cit., p. 102.

(4) Homsy: Op. cit., p. 120.

(٥) الجبرتى جزء ثالث ص ١٢١.

(٦) الجبرتى جزء ثالث ص ١٧١ ـ قال يعقوب بك نخلة رفيله فى تاريخ الأمة القبطية (ص ٢٨٩) إنه شاهد «آثار هذه القلعة قبل هدمها فى أيام المرحوم الخديو إسماعيل».

يرد ذكر يعقوب فى كل هذه المواضع فلا يمكن لقارى الجبرتى أن يتصوره إلا كأحد أوليك المارقين الذين يظهرون فى عصور الحكم الأجنبى ويكونون خلالها حربًا على أممهم. ولكن القارى لا يجد فى الجبرتى ولا فى غيره أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسى هاجر وتبع الجيش الفرنسى إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثرت على الأوراق الخاصة بهذا فى سجلات وزارتى الخارجية الإنجليزية والفرنسية بعد أن كدت أطرح الأمل فى العثور على تفكير مصرى أو غير مصرى فى حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر[١]. وقد أشرت إلى هذه الأوراق فيما نشرت فى تاريخ هذا العهد من تاريخنا[٢]. ونشر المسيو دُوَن ترجمة وثيقة ونص أخرى من هذه الوثايق فى كتاب ضمن المجموعة التاريخية التى تنشرها الجمعية الجغرافية الملكية بفضل حضرة صاحب الجلالة الملك. وقد مهد المسيو دون للوثيقتين بمقدمة تحليلية لهما[٣]. وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقاته بالفرنسيين.

«خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين: خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس جوهرى وملطى وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة، والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم

(١) هذه الوثايق أربع. الأولى كتاب بالإنجليزية من القبطان إدموندس للورد الأول للبحرية الإنجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقة فى ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب فى الطريق إلى فرنسا. الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور من قلم الفارس لاسكاريس. والوثيقتان فى أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية فى المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتى: F. O. 78. Turkey 33 (September-December 1801). والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نِمِر أفندى للقنصل الأول بتاريخ أول فنديمير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) و ١٨ صفر ١٢١٦ (وصحة هذا ١٥ جمادى الأولى) والرابعة بنفس التاريخ لتاليران وزير الخارجية، والوثيقتان الثالثة والرابعة فى سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما المسيو أوريان فى مقالة عن لاسكاريس فى مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥ ـ وقد حرَّف المسيو أوريان اسم الموقع إلى "Hemir" راجع تحقيق هذه النقطة فى الملحق الثالث لهذه الرسالة وترجمة الوثايق الأربع تجدها فى آخر هذه الرسالة.

(2) S. Ghorbal: "The Beginnings of the Fgyptian Question". p. 210.

(3) G. Douin: "L'Egypte Independante". Le Caire, 1924.

من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى».

ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوايف غير الإسلامية منها نظرت فى أول الأمر للتدخل الغربى فى شيونها بالعين التى نظر بها إليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر. « أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وإنما هو مزيج من مساوى الفوضى والعنف والإسراف، ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قايمة مستمرة. فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه. ولا يقل عن هذا شأنًا ـ فى نظره ـ ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية «ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال. وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بإنشايها وتسليحها وتدريبها. غير أنه يلزمنا أن نذكر أيضًا أن الدلايل كلها كانت تدل على أن هذا الاحتلال لن يدوم». وأن القايد كليبر نفسه الذى أذن بإنشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر، وأنه لهذا حاول ـ كما نعلم ـ الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠؛ ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقضه[١]. وسنبين فى موضع آخر[٢] من هذه الرسالة أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتم بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتم بحاضرها، وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها.

كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكّن رجلًا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه

(١) عن اتفاق العريش راجع (Ghorbal: "The Beginnings of the Egyptian Question" Chap. VIII).
(٢) صحيفة ٣١.

الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا. على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم، وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعًا لتحقيق أغراض حاسمة، ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدايم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضًا سريعة القنوط خصوصًا إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أوليك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوايل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثلهم. وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لمَّا وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر، ليس فى الواقع إلا مظهرًا لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القايمين بالأمر فيها مدافعًا عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء «أما يعقوب فله شأن آخر. إذ إنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفية من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلًا من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصورًا على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين». ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسرو ـ ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على ـ ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة: «نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا(١)». أنتم رعية. تخضعون لمن ينتصر منا. هذا كل ما لكم!

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك. وعوَّل أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية. فكان سباقًا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر

---

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ٢٥٥.

انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية. فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان.

كيف كان للاتصال بالفرنسيين هذا الأثر كله فى نفس فرد واحد من أفراد الأمة فى آخر القرن الثامن عشر؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية. وقد ثبت من القليل الذى وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨، أن يعقوب لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طايفته فى ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم،وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم،ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك نخلة رفيله المولود فى غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفى فى إبريل ١٩٠٥ [1].

قال صاحب هذا التاريخ: «يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة فى الدواوين مثل باقى عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة[2]» وأنه سار فى مسلكه إزاء الحكم الفرنسى «فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم فى بعض الأحوال ببذل المال والعطايا، فإنه فضلًا عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية[3]، على أن رجال الدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله» وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك «نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة، وأن يعيش كساير إخوانه فلم يقبل وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جوابًا عنيفًا فسخط عليه. وسمع أيضًا ما كان من تجرؤ يعقوب على الدخول فى الكنيسة مرة راكبًا جواده ورافعًا سلاحه وطلبه أن يناول السر المقدس وهو على ظهر جواده

---

(١) ترجمة رفيله فى كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزى تادرس جزء ثالث ص ٢٤، ٢٥.

(٢) الثابت غير هذا هو أنه عمل فى تدبير التزام سليمان بك الأغا فى الوجه القبلى راجع (Homsy: Le general Jacob, p. 17).

(٣) تزوج يعقوب مرتين. كانت زوجته الأولى قريبة له اسمها مختارة الطويل وبعد موتها تزوج من مريم بنت نعمة الله وأصله من حلب كان هذا فى سنة ١٧٨٢، والظاهر أن هذا الزواج لم تتم إجراءاته الدينية إلا فى سنة ١٧٩١ على يد البطريرك ـ وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له فى ١٧٩٣ ـ والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزواجها فحصلت فى سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجلى العقود بمارسيليا به. راجع (Homsy: Le general Jacob, pp. 30-32).

معتذرًا عن هذه الجسارة بأن من كان جنديًا مثله يلزم أن يكون على الدوام فى أهبة واستعداد»(١).

«رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب». وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك، واشترك أيام أن كان يدير التزام سليمان بك الأغا فى الصعيد فى بعض حروب المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن الذى نزل بمصر فى ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثمانى. واهتم بدراسة بعض تلك الحروب وأتقن أساليب المماليك فى ركوب الخيل واستعمال السيف(٢).

«ثم جاء الفرنسيون وعُين لمرافقة الجنرال ديسيه فى فتح الصعيد، وهنا أيضًا رفض يعقوب أن يقصر همه على ما عين له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسايل بل راقب سير الحرب، وحارب مرة من المرات تحت عين ديسيه نفسه على رأس طايفة من الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاء حسنًا؛ حمل قايده على تقليده سيفًا(٣)» ولم يكن المعلوم أن الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال.

وتعلق يعقوب بديسيه ـ السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد ـ تعلقًا خالصًا(٤) وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى تكوين يعقوب جديد. قال بليار ـ كان من ضباط ديسيه فى حملة الصعيد ـ يصف فترة من الفترات التى انتهزها القايد لإراحة عسكره: «أقمنا فى أسيوط وكنا نجتمع كل مساء فى منزل ديسيه، وكانت أحاديثنا تدور حول موضوعات شتى. وكان كل منا يدلى برأى أو آراء فى السلم والحرب وفى النظم والتواريخ»(٥).

---

(١) تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

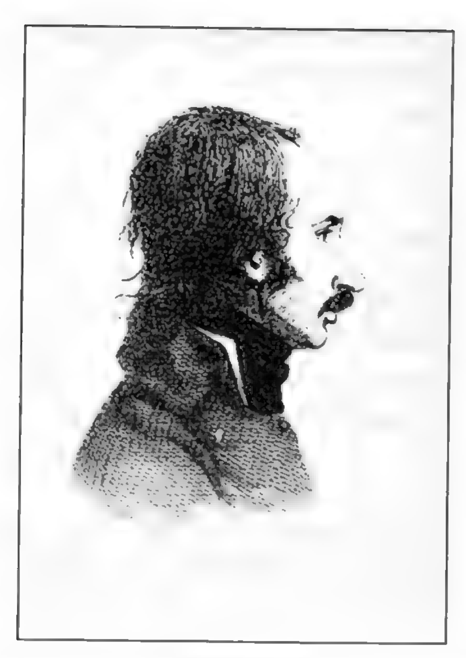
(2) Denon: "Voyage dans la basse et la haute Egypte pendant les Campagnes du general Bonaparte," annex (1802). Tome I Texte. Explication des planches, p. XXXIV.

(3) Homsy: "Jacob", p. 60.

آل هذا السيف فى النهاية للمسيو همصى وتجد رسمه فى كتابه فى صحيفة ٦٩.

(٤) لما قتل ديسيه فيما بعد فى واقعة مارنجو وبلغت الأنباء مصر حزن يعقوب حزنًا شديدًا وكتب للجنرال مينو يبلغه استعداده لدفع ثلث نفقة الأثر الذى أزمعت إقامته لتخليد ذكرى ديسيه. Homsy , p. 115.

(5) Belliard: "Memoires," t. III, p. 213.



الفارس لاسكاريس

نقلا عن مجموعة الرسوم التى عملها الرسام "Dutertre" للكثير من رجال الحملة الفرنسية، وتوجد نسخة من هذه المجموعة فى كتب الأمير إبراهيم حلمى بمكتبه الجامعة المصرية، وهناك بحث مفصل فى ديترتر، ورسومه فى مذكرات "E. De Villiers du Terrage" طبعة سنة ١٨٩٩ ص ٣٥٥ ـ ٣٦٠.

ولا بد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور، وفهم القدر الذى استطاع أن يفهمه ولا بد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار فى نفسه، وكشف له عن عالم من المعانى غير الذى نشأ فيه وعرفه. ويعجز يعقوب عن الإفصاح عما يجول فى خاطره ويقيِّض الله له رجلًا من أغرب أهل عصره يتولى عنه التعبير. ذلك الرجل هو الفارس ثيودور لا سكاريس دى فنتميل.

* * *

الفارس لاسكاريس

رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات. وأذاع أمره لامارتين فى قصة «فتح الله الصغير بين بدو الصحراء»[١]. واقترن اسمه أثناء إقامته بلبنان باسم سيدة إنجليزية نبيلة لا تقل عنه غرابة أطوار وهى ليدى هستر ستانهوب حفيدة الوزير الكبير شاتهام وربة بيت خالها وليم بت مدة وزارته. تركت إنجلترا وقضت باقى أيامها فى لبنان. ولا يعرف التاريخ لم كان ذلك. أكانت هجرة نفس أبية إلى حيث الحرية التامة؟ أم كان ذلك لمسٍ ظهر فيها شذوذًا وتجلى فى جده وخالها عظمة وزعامة؟ ومهما يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن لأهل القصص[٢].

وكاد يترك لاسكاريس أيضًا للمصير نفسه. وقد تمنى باريس لو تولى بيير بنوا كتابة سيرته كما يكتب بنوا السير[٣]. ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو المسيو أوريان فكتب فصلًا ممتعًا تتبع فيه هذه الحياة الضالة فى البر والبحر، فى الغرب والشرق[٤]. وليس هذا بالأمر اليسير.

ثيودور لاسكاريس من بيت إيطالى نبيل يتصل قديمًا بقياصرة بيزنطة. دخل هو وأخوه فى سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى أن انتزعها بونابرت منهم فى طريقه إلى مصر فى ١٧٩٨. درس فى صباه الموسيقى وفنون العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات خيالًا قويًا. وكان ذا نفس أبيَّة تواقة للعلا يريد أن يخلد اسمًا خليقًا بسليل القياصرة. ولكن حظه كان

(1) "Récit du Séjour de Fathalla Sayeghir chez les Arabes Errants du Grand Désert".

(2) مثال ذلك Paule Henry- Bordeaux: "La Circé du Désert", "La Sorcière de Djoun".
Pierre Benoit: "La Chatelaine du Liban".

(3) Maurice Barrès: "Une Enquête aux Pays du Levant," t. II. pp. 205-206.

(4) Auriant: "Mercure de France," 15 juin 1924.

الخمول والفقر والتنقل من مكان لآخر. وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسية لإسماعيل بن محمد على فاتح السودان ثم الموت فى القاهرة فى سنة ١٨١٧ فى ظروف مريبة(١). وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه. «صاحب مشروعات».

تحقق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدى أفراد وحكومات. ولكنها فى أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها. وكان شذوذ لاسكاريس فى أطواره ـ شذوذ ظهر فى أخيه جنونًا ـ وتعدد المشروعات وتنوعها مما لا يبعث على الثقة فيه. ومما يعزينا أنه وجد بعض السلوى أو السعادة فى الخلو إلى نفسه وإلى مشروعاته. وقد جاء فى كلام له: «كل إنسان فى هذا العالم يسلك الطريق الذى هيأه له القدر. واحد من الناس يفتح الممالك ويدوخ البلدان، وآخر يصنع النعال. وبعض الناس ينشيون الدول ويشرعون لها الشرايع، والبعض منتهى جهدهم أن يكونوا آباء أطفال.. أما أنا فأحسن صنع المشروعات. أخرج نفسى من عالم الحس وأعمل فى مشروعاتى وأترك لخيالى التغلب على ما يعترضها من العقبات. ما أجمل الخيال! أجد فيه ما أظنه السعادة»(٢).

رجل هذه حاله تضيق به مالطة ويضيق ذرعًا بالفرسان. تركها وتبع بونابرت إلى مصر. حيث تقلد بعض المناصب الإدارية. تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان فى هذا الوادى التاريخى الرحيب.

---

(1) Roussel (Consul de France en Egypte) au Duc de Richelieu, 23 avril 1817.

Driault: "La Formation de l'Empire de Mohammed Ali", p. 53.

قيل إن لاسكاريس كره منه تدخله فى المسايل السياسية وأنه سقى سما وأن لبوغوص يوسف أحد رجال محمد على نصيبًا فى هذه النهاية. راجع فى هذا أيضًا:

Forbin: "Voyage au Levant", p. 98.

Roussel au Duc de Richelieu. 22 juillet 1817.

Driault: Op. cit. pp. 65-67.

ومهما يكن من الأمر فلا بد من أن نذكر أن الناس فى تلك الأيام كانوا سريعين إلى تصديق دعوى التسميم عن كل من مات موتًا فجائيًا. وسنذكر فى كلامنا عن موت يعقوب ما أشيع من أن القبطان باشا قد سقاه سما قبل ارتحاله عن مصر (ص٣٤).

(2) Rousseau: "Kleber et Menou", p. 333 note 1.

وفى مصر فكر وكتب فى طرق حكمها. ودرس فكرة إقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل فى رأس الدلتا. وعندها يقيم عاصمة البلاد تحت اسم مينوبوليس إجلالًا للجنرال مينو، يحميها الماء من جوانب ثلاثة، وتجتذب إليها خيرات الوادى من منابع النيل[١]. هذا الاجتذاب والتقدم نحو منابع النيل من مشروعات لاسكاريس العزيزة. ألا يمكن أن نجد مغزى خاصًا فى أن إسماعيل فاتح السودان كان تلميذًا للاسكاريس قبيل الفتح؟ وقد ثبت أن المعلم صرف فى بث هذه الأفكار وما يماثلها فى تلميذه أكثر مما صرف فى تعليمه تصريف الأفعال.

ورأى لا سكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها. ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب، وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد. وأشار أيضًا بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا للجلاء ذخيرة حربية وقوة فرنسية يظهرون أنها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش، ويدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم[٢].

وقد اجتذب لاسكاريس إلى مشروعه هذا فرنسيين آخرين سجل التاريخ من أسمايهم مارسل المستشرق والضابط ديبا حاكم القلعة. واتصل بالمصرى يعقوب وجعل فرقته القبطية قاعدة الاستقلال[٣]. وحاول أن يقنع مينو بكل هذا ولكنه لم يقتنع. إذ حالت دون اقتناعه قلة ثقته بالفارس والأقباط عامة ويعقوب خاصة، وسمح لنفسه فى أكثر من مرة بمداعبة لاسكاريس والسخرية منه.

كتب له: «هل تذكر أيها المواطن قصة ابن كريبيون؟ أراد الابن أن ينشى دينًا جديدًا. فرفع الأب صليبًا وقال انظر يا بنى ماذا فعلوا به[٤]».

---

(1) "Reynier: "Mémoires", t. II, p. 400.
Auriant: "Mercure de France", 15 juin 1924, pp. 582, 583.

(2) Auriant: Op. cit., pp. 585-586.

(3) Auriant: Op. cit., p. 581 note 2.

(4) Menou à Lascais 21 messidor au VIII (10 juillet 1800).
Rousseau: "Kléber et Menou," p. 333.

ولكن مينو مضى فى الاستفادة من لاسكاريس ويعقوب: الأول لاتصاله بالمصريين والثانى لمهارته المالية وجنده القبطى[١].

* * *

وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة فى القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للإنجليز والعثمانيين. وكان من شروط التسليم أن يكون لأى مصرى أراد حق الخروج مع الجيش الفرنسى دون أن يتعرض أحد ممن تركهم من أهله لأذى فى النفس أو المال، وألا يؤذى أحد ممن خدم السلطات الفرنسية وآثر أن يبقى فى مصر بعد زوال أمرها[٢].

وأرسل إبراهيم بك أمانًا للأقباط الذين ينطبق عليهم هذا الشرط الثانى فخرجوا إليه وسلموا وعادوا إلى دورهم[٣]. أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والظاهر أنه حاول أن يستصحب عددًا كبيرًا من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته. فقد جاء فى الجبرتى فى وقايع صفر ١٢١٦: «أما يعقوب فإنه خرج بمتاعه وعازقه (كذا) وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قايمقام (أى بليار) وبكوا وولولوا وراجعوه فى إبقايهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار وبناء وصايغ وغير ذلك فوعدهم بأن يرسل إلى يعقوب أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه[٤]». «ولم يخرج معه إلا أهله، زوجته مريم نعمة الله وابنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس[٥]. وكان فى الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض مسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله. وخرج أيضًا كثير من نصارى الشوام والأروام مثل يني وبرطلمى (فرط الرمان) وغيرهما[٦]».

لم يبق يعقوب بمصر يعمل فى تقرير مصيرها كما حسب. وليس أمامنا إلا أن نعلل

---

(1) Auriant: Op. cit., pp. 589. Homsy: Op. cit. p. 121.

(٢) تجد هذين الشرطين كما أعلنا لأهل القاهرة فى الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٢.

(٣) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٦.

(٤) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٦.

(5) Homsy: Opt. cit. p. 133.

(٦) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٧.

ذلك بأسباب لا بأس بها. أولها ما رآه من تشتت الجنْد القبطى وعزم بناييهم ونجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم. ثانيها أن القيادة الفرنسية لم تعد شيئًا ما لمستقبل الفرقة القبطية، ولا لمستقبل النفوذ الفرنسى فى مصر. بل كان كل همها الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب. وربما كان سبب هذا الإهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسى إلى قسمين. قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الإسكندرية تحت القايد العام مينو. ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعبًا. وسلم بليار القاهرة فى اتفاق عقده مع الأعداء. وأعقبه تسليم مينو[١]. أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير: السعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر. ولا أظن أن خروج يعقوب كان للخلاص بنفسه، فمثله ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين. وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء فى مصر ووعده ومنّاه[٢] ولكنه رفض وآثر الرحيل للعمل فى ميدان جديد.

* * *

مشروع استقلال مصر

ركب يعقوب السفينة الحربية الإنجليزية بلاس وربانها إدموندس. وكان على ظهرها أيضًا الفارس لاسكاريس. وقد عرف إدموندس قدر يعقوب وأنه زعيم فى عشيرته، وأن الفرنسيين لقبوه «جنرالًا» حرصًا على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه فى شيون مصر، وقال له إنه يعتقد أن حكومة العثمانيين فى مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسى إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى، وأنه صدق ما ادعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأوروبية ولم يكن يدرك إذ ذاك مدى القوة البحرية الإنجليزية. ثم قال إنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأوروبا قد تنفع فى هذا السبيل، على أنه يعلم أن إدراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الإنجليزية[٣].

هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين

(١) عن خروج الفرنسيين من مصر انظر Ghorbal: Op. cit. ch. VIII.

(2) Homsy: Op. cit. p. 131.

(٣) راجع الملحق الأول لهذه الرسالة.

الرجلين أن يعقوب على رأس وفد مصرى اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات فى أمر الاستقلال.

بعد هذا الحديث اشتد المرض على يعقوب وتوفى فى السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١، والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية، وقد راعى إدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته فى البحر بل وضعها فى دن من «الروم» حفظها حتى مارسيليا حيث دفنت. وفى إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب فى قبر معروف(١).

ولم يكن موته نهاية الأمر. فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رييسه وأعد مذكرة مفصلة بالموضوعات التى تحدث فيها يعقوب مع إدموندس وسلمها فى مارسيليا لذلك الإنجليزى لتبليغها لحكومته. فتعهد إدموندس بذلك وبالمحافظة على سر هذه الأحاديث عن نفسه وعن حكومته.

ما رأى إدموندس فى كل هذا؟ قال أولًا إنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذى تكلم عنه لاسكاريس، وثانيًا أنه لا يدرى إن كان عضوًا فى الوفد أو سكرتيرًا مترجمًا له. وأنه على كل حال لم يستطع أن يصفه إلا بأنه رجل «خيالى».

قام إدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التى أعدها لاسكاريس(٢).

بدأ الكاتب بإهداء التحية للورد الأول للبحرية الإنجليزية (الموجه إليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد إنجليزى أن يسعى له. ثم أطنب فى وصف عظم هذا المشروع ـ تحقيق استقلال مصر ـ وأن هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التى

---

(١) عن موت يعقوب وتحقيق موضع قبره راجع (Homsy: Op. cit. pp. 134-145). روى الضابط الفرنسى Vigo Rousillon فى مذكراته: (Recue des Deux Mondes, 15 aout 1890)

أنه حضر الحديث بين القبطان باشا ويعقوب وأن يعقوب شرب قهوة قدمها له خادم الباشا وأنه فى اليوم التالى شعر بألم معوى شديد، وتوفى بعد ساعتين والسفينة التى كان عليها على مقربة من رشيد. ولا صحة لهذه الرواية بالمرة.

(٢) راجع الملحق الثالث لهذه الرسالة.

تكاثفت على هـذا الـوادى الذايع الصيت، حيث مهد الحضارة، فيه تعلم الإغريق وعن الإغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستنار أهلها. ألا يثير ذلك فى نفس الغربيين شيئًا من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها؟

ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحدًا. وأن استقلالها وقد أصبحت موضع أطماع الدول خير حل للمسألة المصرية. تلك المسألة التى أثارتها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها. وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله: «إن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها».

وتناول أيضًا فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الإنجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع، فأكد صداقة المصريين للأمة الإنجليزية بعد أن عرفوا جنودها وبعد أن خبروا الحكم الفرنسى، وأن سيدة البحار لا بد وأن تسيطر بنفوذها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى.

«ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين. وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكرته: الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة، والثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها. أما عن نوع الحكومة فاكتفى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وإنها بذلك تنال احترام الأمة وطاعتها» وحبها كما أحب أهل الصعيد فى الماضى القريب حكم العربى همام وكان عادلًا حازمًا(١) «أما عن وسايل الدفاع فنجده يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صد اعتداء أوروبى إلا بعد مضى زمن طويل، ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربية أوروبية وببذل المال لرجال الباب العالى».

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر، وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حذر الموت،ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين إذا ما رفضت الدول إنشاء دولة مصرية مستقلة.

---

(١) كسـر شـوكة همـام على بك الكبيـر. وتوفى همـام فى سـنة ١١٨٣ هـــ وترجمته فى الجـزء الأول من الجبرتى ص ٣٤٥ـ٣٤٧ (Il Signor Conte Anton Cassis).

«أما عن خطة «الوفد المصرى» فى القريب فإنها ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لإقناعها بقبول قاعدة الاستقلال فى مفاوضاتها مع الحكومة الإنجليزية على مصر» ويرجو لاسكاريس أن لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسى مما يحمل الحكومة الإنجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية. ويطلب فى النهاية أن تكون مخابرات إنجلترا مع الوفد شفرية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا[١].

ونجد لاسكاريس فعلا يقدم للقنصل الأول بونابرت مذكرة موقعًا عليها من «نمر أفندى» بالنيابة عن الوفد المصرى وهذه المذكرة خالية طبعًا من التعريض بالحكم الفرنسى، ومن تفضيل المصريين للإنجليز؛ ذلك التفضيل الوارد فى المذكرة لإنجلترا على أنها تتفق معها فى الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والإنسانية ولمجد بونابرت[٢].

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا ـ تالليران ـ يقرر فيها الغرض الأسمى ويعتذر عن الإجمال تاركًا التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير فى باريس؛ إذ العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة، وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقى إذ إن المسلمين منهم يعز عليهم إبدال غيره به، فضلًا عن أن هذا الزى يثير فى نفس بونابرت ذكرى فتوحه ويعرف من لم ير مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله[٣].

* * *

(١) تحت هذا الاسم ولقب النبل الغربيين يستتر مصرى قبطى اسمه أنطون كاسيس. عمل فى إدارة الجمارك فى الإسكندرية أيام المماليك. ولما أرادت حكومة الامبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها اجتذبت لتحقيق ذلك أنطون كاسيس هذا فمنحته حمايتها وأنعم عليه الامبراطور يوسف الثانى بلقبى بارون وكونت فى الامبراطورية. ولما فشل هذا المشروع النمساوى وعلا نفوذ أعدايه غادر الكونت كاسيس مصر واتخذ تريستا موطنًا له وكان هذا فى ١٧٨٤ راجع عن هذا: (F. Charles-Roux: "Autour d'une Route", pp. 156-159).

(Hoskins: "British Routes to India" pp. 23, 26-27).

(٢) انظر الملحق الثالث لهذه الرسالة.

(٣) انظر الملحق الرابع لهذه الرسالة.

لا اللورد الأول للبحرية الإنجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية اهتم بما فى هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة.

المسألة المصرية ومعاهدات الصلح ١٨٠١ - ١٨٠٢

وفى «مقدمات الصلح» بين فرنسا وإنجلترا اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية. وأدمج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية: معاهدة أميان. وفى سياسة الحكومتين قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك. وحتى فى هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها فى تسهيل - أو منع - وقوع مصر فى حكم إنجلترا أو فى حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها فى رفاهية أو سعادة الشعب المصرى[1].

لم يكن إذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى. ولا نجد فى الأوراق ما يدل على وجود تفويض لوفد مصرى. وعلى فرض وجوده فمن الثابت أنه لم يشترك فى منحه أى شيخ من العلماء، وإلا لوجدنا فى الجبرتى ما يدل عليه. وليس هناك أيضًا ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من عظماء الأقباط فقط. إذ إن سيرتهم لا تحملنا على الاعتقاد بأن الفكرة الاستقلالية جالت فى أذهانهم. وإنما التفويض الوحيد الثابت حصول يعقوب عليه كان لمطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه هو وجرجس جوهرى وآخرون للجنرال مينو[2].

يحق لنا بعد هذا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من أفكار لاسكاريس. وأن يعقوب لم يقرر إلا الفكرة الاستقلالية.

رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه فى أيام أقرب إلينا من سنة ١٨٠١: فى اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال، وفى توطيده بالاعتراف الدولى، وفى تبرير طلب الاستقلال بالتنويه بمجد مصر، وبأن

---

(١) عن معاهدات الصلح انظر (Ghorbal. "The Beginnings of the Egyptian Question" ch. IX).

(٢) اشترك فى هذا القرض يعقوب وجرجس جوهرى وأنطون أبو طاقية وفلتاءوس وملطى (Homsy: op. cit. 119) وقبيل رحيل يعقوب خوله شركاؤه مفاوضة الحكومة الفرنسية فى فرنسا فى رد مالهم. (Homsy: op. cit. 130) وحال موت يعقوب دون ذلك. ثم قام حفيد لأنطون أبو طاقية بالمطالبة وذهب بنفسه إلى باريس وكان ذلك أيام نابليون الثالث. ورفضت حكومة الامبراطورية أن تعترف بصحة الدين وسوت المسألة بأن صرفت لحفيد أبى طاقية ما تكلفه من نفقة فى المطالبة (٤٥٠٠ ليرة فرنسية) ومنحته التبعية الفرنسية (رمزى تادرس: الأقباط فى القرن العشرين جزء رابع صفحة ٩٦).

عظمة الماضى تبعث على الأمل فى عظمة المستقبل، وبأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة، وأخيرًا بأن موقعها الجغرافى يجعلها موضع التنافس، وأن الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الأخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها.

* * *

خاتمة المهاجرين المصريين

«كان نصيب مشروع ١٨٠١ الإهمال. وكذلك كان حظ أصحابه».

وقد عرفنا مآل يعقوب، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل. وظل منهم فى آوربا آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ووقع أكثرهم فى الفقر والفاقة فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشًا مدة طويلة وانتهى أمرهم بالاندماج فى الفرنسيين. ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى[(1)]».

---

(١) تجد عريضة استجداء من المهاجرين المصريين فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى السجل الخاص بالدولة العثمانية تحت هذا الرقم Turquie, "Supplements", vol. 203. حيث تجد مثالا من تقاضيهم فى النزاع بين أرملة يعقوب وأخيه حنين على تركة الجنرال فى (Homsy, op. cit. p. 70).

وصل خبر هذا النزاع إلى مصر. الجبرتى جزء ثالث ص ٢٨١ فى حوادث رجب سنة ١٢١٨، أما عن المعاش الذى أجرته الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين فالظاهر أنه استمر يجرى على ورثتهم. من ذلك تجد جبريل إبراهيم وهو حفيد أخت يعقوب يتمتع بمعاشه حتى موته فى ١٨٧٨. (Homsy, op. cit. p. 67).

ومما يصح ذكره أيضًا عن المهاجرين المصريين أن الرحالة الهندى المسلم الفارسى الثقافة ميرزا أبا طالب خان أثناء سفره من باريس إلى مارسيليا فى عودته من إنجلترا إلى وطنه من طريق القسطنطينية والعراق التقى فى عربة السفر بحسناء مصرية مسيحية ذاهبة إلى مارسيليا وأعجب بشجاعتها، فإنه لما حاول بعض المسافرين مداعبتها رغمًا عنها أوسعتهم سبًا بالعربية. وحال أبو طالب بينهم وبينها، ولما قابلته فى مارسيليا سهلت عليه صعاب سفره وكان هذا فى ١٨٠٢ (انظر Mirza Abu Talib Khan: Voyage en Europe etc. Traduction francaise, Paris 1831. t. II, 69-70).

أما عن ليوس بقطر فكانت سنه وقت نزول الفرنسيين نحو الخامسة عشر. والظاهر أنه ابتدأ دراسة الفرنسية إذ ذاك، وعمل فى الترجمة أثناء الاحتلال الفرنسى. ثم هاجر من مصر عند نهاية الاحتلال الفرنسى وليس هناك ما يثبت أنه ابن أخت يعقوب. وأقام بقطر فى مارسيليا حتى سنة ١٨١٢ مشتغلا بدراسة الفرنسية، وفى تلك السنة استقدمه وزير الحربية لباريس واشتغل أول الأمر بترجمة بعض الوثايق العربية الخاصة بالحملة إلى اللغة الفرنسية، وعاون فى تحقيق الأسماء العربية اللازمة للخرائط الجغرافية المنشورة فى كتاب وصف مصر. وكان أثناء ذلك يعد قاموسه الفرنسى العربى. وفى =

وظل لاسكاريس يضرب فى بلاد الشرق سنينًا. يُجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع أحيانًا لإصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان، وأحيانًا لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية. وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين وحظه الحزن والفاقة. إلى أن هبط مصر يرتزق من تعليم الفرنسية لإسمعيل بن محمد على وبقى كذلك إلى أن مات فى ١٨١٧. وانتهى كما بدأ «صاحب مشروعات». إلا أنه على الرغم من ذلك يحق علينا أن نحيى ذكرى من عرف كيف يجيد الكلام فى استقلال مصر، وكيف يبنيه على مبرر الاستقلال الحقيقى: الكرامة الإنسانية. فكان بذلك معبرًا بلغة العصر الحاضر عما جاش فى نفس المصرى يعقوب.

كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية، أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد على حتى اليوم.

= سنة ١٨٢١ عين لتدريس العربية العامية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ومات فى نفس السنة وهو فى السابعة والثلاثين وقد تمكن من تجهيز القاموس. ووقف على طبعه خلفه فى تدريس العربية المستشرق Caussin de Perceval وقدم له بترجمة لبقطر منها استخلصنا الحقايق السابقة. وقد طبع هذا القاموس أيضًا فى القاهرة فى مجلدين فى سنة ١٨٧١، وقام على طبعه عبيد غلاب خريج مدرسة الألسن. وفى كتب الأمير إبراهيم حلمى بمكتب الجامعة المصرية توجد هذه الطبعة من القاموس، كما توجد أيضًا طبعة باريس الرابعة فى مجلد واحد وتاريخها ١٨٦٩، وقد وقف على هذه الطبعة الرابعة Armand Pierre Caussin de Perceval ابن المستشرق السابق الذكر.

الملحق الأول[1]

من القبطان جوزيف إدموندس ربان السفينة الحربية بالاس للإرل أوف سانت فنسنت اللورد الأول للبحرية الإنجليزية

على ظهر السفينة بالاس
جزيرة منورقة فى ١٤ أكتوبر ١٨٠١

سيدى

استبحت لنفسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا اعتقادًا منى بأنه قد يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصا يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى باريس فى الوقت الحاضر.

كان ممن ركب فى مصر السفينة بالاس تحت إمرتى رجل قبطى ذو سمعة حسنة جدًا وهو من زعماء طايفته وله فيها نفوذ كبير. وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده.

عنيت بعض العناية بهذا المنفى السيى الحظ مما جعله يحادثنى فى شيون بلاده. وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها، وأنه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عله يخفف عن مواطنيه ما قاسوه، وأن الفرنسيين

(1) Captain Joseph Edmonds of His Majesty's Ship Pallas to the Earl of Saint-Vincent first Lord of the Admiralty. Minorca 4th. October 1801.
Foreign Office Records, 78. Turkey, vol 33.
Traduction française, Douin, "L'Egypte Indépendante" pp. 1-3.

خدعوهم وأن المصريين فى الوقت الحاضر يحتقرْونهم كما كانوا يحتقرون الترك وأنه لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا. وقال أيضًا إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة فى أوروبا وأنه لم يعرف إلا قليلًا عن قوة إنجلترا البحرية، ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة إنجلترا فإن رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر لن تتحقق. وأضاف صديقه لاسكاريس (وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لى، أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدًا فوَّضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوروبية فى أمر استقلالها. وأثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتابى هذا. وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته فى أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث لقايد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته. وقد قرر لى المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقيًا، وأن المفوضين الآخرين على ظهر السفينة بالاس لا يزالون أعضاء فيه. هذا وإنى لم أتمكن من أن أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس إلا سكرتيرًا مترجمًا له. وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى[1]. وأظنه بيدمونتى الأصل، وسمعت أنه من أوليك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطة وتبعوا جيش بونابرت. وقد أعطيت ميثاقى للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالًا يؤذيهم. هذا ولما كان من المحتمل جدًا ذهاب هذا الوفد الذى لا يمكننى تقدير مدى ما بيده من تفويض للإقامة فى باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة. إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لإبلاغها أولًا لرييسى اللورد كيث. وأرجو أن تتنزلوا فتقروا مسلكى هذا.

ولى الشرف... إلخ.

(1) "From his conversation I believe him to be of a speculating mind."

الملحق الثانى[1]

مذكرات مرفوعة للقبطان إدموندس لتذكره فى الوقت المناسب له برءوس أهم الموضوعات التى تبادلناها فى أحاديثنا السياسية على ظهر سفينته.

(١)

الخطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النبيل[2]. وقد يظهر لأول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطًا عاديًا فى الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء. ولكنه يجب أن يعتبره فى الحقيقة ملخص الأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة هذا ولما كان الإسهاب فى شرح خطتنا فى الوقت الحاضر أمرًا أقل ما فيه الرعونة فإن هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الأقل لتذكيرك بأهم موضوعات أحاديثنا، ومتى حان زمن إبلاغك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل؛ فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم. حتى يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لإنجلترا مسند نستند إليه لدى حكومته. وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها منافع لأمته. وأى قضية أليق بسعى لورد نبيل مثله!

---

(١) المذكرات التى تكون ها الملحق مرفقة بالكتاب السابق وهى فى نفس السجل الذى بيناه عن الملحق الأول (Texte francais. Douin. op. cit. pp. 5-12). بهذه المذكرات «بياض» فى عدة مواضع وبها أيضًا جمل تحتها خط وهذه المواضع مبينة هنا كما فى الأصل.

(٢) الظاهر أن لاسكاريس ظن أن إدموندس قد يكتب أولا لرييسه المباشر اللورد كيث لا مباشرة إلى اللورد الأول للبحرية كما فعل.

(٢)

وإذا سلمنا بأن ما سيعرضه الوفد المصرى لدى الحكومات الأوروبية على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الأهمية أمام أعينها، فلتعترف معنا على الأقل - أيها القبطان - أن الدول لن تعمل أبدًا عملًا أمجد وأنبل من أن تبدد بقرار سياسى واحد ظلمات الجهل والوحشية التى تكاثفت على هذه البلاد الذايعة الصيت. تلك البلاد التى كانت مهد استنارتنا وعلومنا وفنوننا. تلك البلاد التى يمكن القول عنها إجمالًا إنها كانت موضع قيام الحضارة التى نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا. إذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعورًا بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الأوروبية عليها حتى إذا ما كان ذلك وردوا إليها أمرها، أمكنها أن ترضى جميع الدول التى تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها فى مصالحها.

(٣)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية). وفى هذه الأثناء قد تقترحه عليها الحكومة الفرنسية. عنديذ يجب على الحكومة الإنجليزية أن تعلم أن الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى، فعليها إذن ألا يريبها أمره... فإن المصريين[1]... ولا نظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسى إلا على سبيل المجاراة، والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح إنجلترا. ومما لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة فى تملك مصر.

(٤)

تتداعى الامبراطورية العثمانية فى جميع أجزايها للانحلال. ويهم الإنجليز إذن قبل حدوث هذا؛ أن يدبروا لأنفسهم من الوسايل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة

(١) جملة غير تامة فى الأصل.

من هذا الحادث المهم عند وقوعه. وإذا تبين لهم استحالة استعمارهم مصر ـ كما استحال هذا على فرنسا ـ (فلهم عوضا عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ إنجلترا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها. وليس من شك فى أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها. و لكنها لن تكون إلا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التى تنتجها أرضها الخصبة، ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدان لتجارة إفريقيا الوسطى. ولا بد من أن إنجلترا بحكم مركزها فى الهند تهتم جدًا بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا.

(٥)

وكان مراد بك يقول ـ وربما كان على حق فى قوله ـ إن كفار الغرب (كذلك سمى الأمم الأوروبية) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وأن الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون دايمًا مثار اختلافهم. قد يقال إن إنجلترا لا حاجة بها إلى ذلك الامتلاك إذ إن سيادتها البحرية تحتم أن تكون كل تجارة مصر فى يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ فى مصر. ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالى الطبيعية، وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة إرضايها أكثر من إرضاء إنجلترا؟ ألا تذهب الدولة فى هذه الخطة فتغلق أبواب مرافيها فى وجه الإنجليز؟ أليس من الممكن أن يضغط الفرنسيون على الترك برًا فيحملوهم على الإمعان فى عدايهم للإنجليز وتحطيم تجارتهم فى أراضى الشرق الأدنى وفى البحر الأحمر؟

(٦)

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين، فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق فى حكمهم أثناء احتلالهم البلاد. ولا حاجة بى للكلام فى هذا لأنى أعتقد أنك تتذكر بسهولة ما دار بيننا من حديث فيه. كل شىء إذن يبرهن ـ الأسباب السابقة، وما يشعر به المصريون نحو الإنجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقًا ـ أن مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية لإنجلترا. فعلى هذه إذن أن تسمح

سياسيًا على الأقل باستقلالها، هذا إذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه. يملى هذه الخطة ما تتوقعه من حوادث فى المستقبل.

(٧)

فرضنا أن حكومات الدول الأوروبية سمحت باستقلال مصر. كيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا فى تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التى يفكر فيها الوفد المصرى لحكم البلاد. ويكفى الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشأه استنارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض. لا يقوم نظام الحكم الجديد على شىء من هذا. بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن، أو يكادون لا يعرفون إلا عاطفتين خلقيتين: المصلحة والخوف. فإن أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالأمر العسير) أن ترفِّه من عيش الناس بعض الشىء، وأن تزيد كسبهم قليلًا فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين. أو ليس أى نظام أفضل من الاستبداد التركى؟ لتكن إذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام العربى فى الصعيد؟ (وقد حدثتك عن تاريخه) ولتثق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب.

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوروبية؟ لا تتوقع حدوث شىء من هذا إلا بعد زمن طويل، وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء. أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك؛ فإنا نعتقد أن الدول الأوروبية تحظر عليهم مس استقلال مصر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يستخدموا جيشًا أجنبيًا من ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه. ويكفى هذا الجيش لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها، ويكون هذا الجيش الأجنبى أيضًا نواة الجيش الوطنى. هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهم يعملون أى عمل للحصول عليه، فإننا نستطيع ردهم

عن مصر ببذله لهم. وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية وتنذرهم بشر مستطير.

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوايف وأن هذا الانقسام يتيح الوسايل لدفع هذه الطوايف بعضها ببعض فتتكافأ بذلك قواها. وللوفد المصرى صلات بهذه الطوايف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون الأخرى. وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تمامًا عن الحكومة التركية فى مصر، ولا بد من هذه الحيطة إزاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات. ولو عرف الترك حقيقة الأمر لما ترددوا فى الفتك بإخوان الاستقلال عن آخرهم. والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الإخوان قد تحدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن إخواننا فى مصر حالهم غير هذه. هم تحت السيف والعصا. فليس أمامهم إلا المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان والمخلصين.

(٨)

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الأوروبية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذى يثقل حمله على بلادهم التعسة. ولكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الإغارات عليها، وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون، فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضمانًا يقيهم على الأقل، إذا عادوا لوطنهم، شر انتقام الترك منهم.

(٩)

هذا ولو أن الوفد المصرى لدى الحكومات لن يعمل إلا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس تضميننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فإنا يمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سر المفاوضة. لذلك فإنا نرفق بهذا « شفرًا » يستعمل فى مراسلاتنا عند الحاجة إليه.

(١٠)

ويرى الوفد المصرى حرصًا على تحقيق ما يصبو له من إبلاغ المفاوضة غايتها لزوم كتمان أمر ما، فاتحناكم فيه من ممهدات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرى فى مقدوره عرقلتها. وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أوروبا كى تكون فرنسا البادية بعرض المقترحات الأولى (الخاصة بالاستقلال) على إنجلترا. وتكون إنجلترا عنديذ قد اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما فى ذلك الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده. وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصرى لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الأمتين إحداهما من الأخرى أو حذر دسيسة من دسايس الجمهورية (الفرنسية).

(١١)

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد، يمكنك أيها القبطان أن ترسل ما تريد للسنيور الكونت أنطون كاسيس[١] المقيم فى تريستا، وهو يتولى إرسال الرسايل حيث يقيم الوفد، على أن يوضع تحت عنوانه عنوانى. أما ما قد يرسل لى (من غيركم) من إنجلترا فإن وصولنا إلى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين أقيم. وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة (الإنجليزية). ولكن تلزم الحيطة التامة فى هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرة.

على ظهر السفينة بلاس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١.

(١) عن كاسيس هذا انظر هامش ص ٣٦ من هذه الرسالة.

الملحق الثالث[١]

من نمر أفندى بالنيابة عن الوفد المصرى للقنصل الأول بونابرت[٢] إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الكثير الحب له محجر مارسيليا فى أول فنديميير من السنة العاشرة (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر سنة ١٢١٦ [٣].

فى أيام العالم الأولى، فى تلك العصور البعيدة المجهولة، عندما كانت فرنسا لا تختلف كثيرًا عما صورته الطبيعة، ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الإغريق. ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلم الحضارة بالأمس إلى فرنسا، وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها ويتعرفوا إلى ما اهتدت إليه من وسايل لا عهد لغيرها من الأمم بها، تلك الوسايل التى مكنت جمهورية ناشية من صيانة ما كسبته فى ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة.... وكما أن سولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق، كذلك الوفد

---

(1) Archives du Ministere des Affaires Etrangeres. Turquie. "Correspondance", vol. 203. Auriant "Mercure de France", 15 Juin 1924, pp. 593-594.

(٢) بهذه الوثيقة أيضًا بياض فى عدة مواضع بيناها هنا كما فى الأصل.

Nemir Effendi (pas Hemir, comme l'a transcript M. Auriant) au premier Consul. Il y a un Lofti (sic. Litfi) Nemir parmi les emigres Egyptiens a Marseilles, voir Homsy, op. cit. p. 141.

حرف المسيو أوريان فى نقله هذه الوثيقة اسم الموقع عليها إلى «همير أفندى». وقد قرأتها نمر أفندى ووجدت فى أسماء المهاجرين المصريين فى مارسيليا اسم لفطى (أى لطفى) نمر وصناعته مترجم لغات شرقية (راجع كتاب همصى ص ١٤١). وإذا تذكرنا أن النون والميم فى النمر ينطق بها فى بعض اللهجات متحركة بالكسرة سهل علينا فهم كتابة هذا الاسم بالحروف الفرنسية هكذا "Nemir"

(٣) كذا فى الأصل و٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١ توافق ١٥ جمادى الأولى.

المصرى الذى فوَّضه المصريون الباقون على ولايهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود لها من فرنسا. يكون هذا أيها القنصل الأول إذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد، وأحسنت استقبال وكلايهم فى باريس. وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفلًا شرقيًا يجدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته. ولا بد أنك تحس إحساسًا شديدًا بألم ما فقدت، فأمر فى معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتكماية مرة. هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقًا به.

عن الوفد المصرى
وكيله
نمر أفندى

(حاشية[١]) أغا الانكشارية[٢] وعضو الوفد، الذى عرفته أيام أن كنت فى القاهرة يرجونى أن أعيد لك ذكره ما شرفته به من عطفك عليه. ن. أ

(1) Ce post seriptum a ete omis par M. Auriant dans sa transcription du document. Il se trouve dans le texte original comme suit: "L'aga des janissaires et membre de la legation, connu de vous au Kaire, m'ordonne de le rappeler au souvenir des bontes dont il a ete honorees par vous". N.E

(٢) المقصود من هذا عبد العال الأغا الذى ذكرنا خبر وكيفية ارتحاله مع الجيش الفرنسى فى سنة ١٨٠١ ـ ص ٣٣.

الملحق الرابع[1]

من نمر أفندى لوزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل فى مرافى الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه عن مصر. والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رييسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر، يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية، ويرى من واجبه أن يلجأ إليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين فى كنفك وتقول له كما يقول بدوى الصحراء لضيفه «كن فى أرضك[2]».

كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى فى الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم أفريقيا الوسطى الجذابة الخفية، فبذل جهودًا عديدة غير مثمرة ليعلم فى فرنسا شبانًا من المصريين، وعلى الأخص من القبط، فإن بطريرك هؤلاء هو فى الواقع بابا الأحباش. لم ينجح الملك فى سعيه هذا. واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه ـ اللهم إلا الجزء الضييل منه ـ الملكية الفرنسية

(1) Nemir Effendi au Ministre des Relations Extérieures, 1 Vend. annex Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Turquie. Correspondance vol. 203.
Auriant: op. cit. pp. 594-595.

(٢) فى الأصل ما يأتى:
"et lui accorder, comme disent les Arabes du désert, votre fiardac d'hospitalité".

المطلقة، وقد بلغت منتهى القوة الاستبدادية. هذا والوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يجول فى نفوس مفوضية العديدين من شعور بصالح الجماعة، وما يملؤ أفيدتهم من أمان وما يملكون من أصالة تدبير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين: الأولى، سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد. الثانية، وضع أملهم فى فرنسا، اعتقادًا منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملهم. نتقدم إليك إذن أيها الوزير برأى: تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة عظيمة، لم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض ما فقدته؟ إنك إن تفضلت فدعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع إنجلترا فإنا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى فى الشرق وتدرؤ عنه ما قد يفقدها إياه زمنا طويلا من أثر الجلاء عن مصر، وما آل إليه أمرها الآن وسعى الدول التى تخشى بحق علو كلمة فرنسا. بل نستطيع أن نؤكد أكثر من ذلك. نستطيع أن نؤكد أن فرنسا إذا أرادت يمكنها بواسطة أمة ـ لن تكون إلا موالية لها ـ مد نفوذها نحو أواسط أفريقيا. وهكذا يتحول تركّكم مصر للإنجليز من حادث نحس إلى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية.

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فايدة فى الإسهاب. فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يبين عن مقاصده مالا يستطيع فى عشرين مذكرة سياسية. ونحن العرب نقدر فى الكلام على ما نشاء وإن كنا فى الكتابة لا نبلغ إلا جهد المقل. هذا إلى أننا غير غافلين عما توجبه علينا كثرة شواغلك السياسية من الإجمال فى الرسايل. ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا. وأن تسمح لنا إن تفضلت باستقبالنا فى باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى. فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم. وفضلا عن هذا، هذه الأزياء الشرقية قد تذكّر القنصل الأول بفتوحه وراء البحار وترضى المستطلعين ممن لم يتبعوه للشرق.

والوفد المصرى يعلم أن وقت القنصل الأول الذى تصدر عن إرادته أمور الحكم حتى فى جزيياتها، وتستظل الدولة فى ظله الظليل أثمن من أن يصرفه فى التفكه بقراءة ما يرد إليه من الرسايل الخاصة، ولكننا نرجو أن يقدر أن وفدنا جديد فى بابه، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف خاصة، وإن كتابنا له[١] المرفق بهذا له ماله من أهمية فيتنزل لتسمله منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور.

(١) المقصود من هذا الكتاب المنشور فى الملحق الثالث.

خاتمـة

على أية حال يقدم غربال هنا رؤية جيله «الليبرالى المحافظ» جيل ثورة ١٩١٩، جيل يبحث عن جذور تاريخية للقومية المصرية و«شرعنة تاريخية» للأسرة العلوية وأخذ وعطاء بين الحضارة الغربية ومصر الحديثة، هى رؤية أيديولوجية للتاريخ نختلف معها بشدة كأبناء للعصر الحالى لكننا لا نملك إلا الإعجاب بعصر الحريات الذى كانت تنتشر فيه مثل هذه الآراء آنذاك. ويُلح علىّ تساؤل ماذا لو نزعنا اسم شفيق غربال من على غلاف الكتاب وقمنا بنشره الآن باسم مؤرخ معاصر؟ من المؤكد أنه سيقع ضحية لعاصفة «التخوين والتكفير».

د. محمد عفيفى

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب كما أطلق عليه الفرنسـيون. والفارس لاسكاريس المغامر الأوروبى ظلا حكاية شعبية أسطورية تناثرت أخبارهما فى ثنايا الكتب إلى أن توفر عليها المؤرخ الكبير شفيق غربال ليجلو القصة الحقيقية التاريخية للجنرال يعقوب القبطى الصعيدى الذى تعاون مع الفرنسيين وقاد فرقة عسكرية تقاتل فى صفوفهم، ثم خرج معهم عندما رحلوا عن مصر مشكلا مع جنود فرقته «الوفد المصرى» الأول والذى ذهب إلى أوروبا باحثا عن تأييد لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية عام ١٨٠١، ليصبح السؤال: هل كان يعقوب مجرد عميل للحملة الفرنسية، أم مناضلا مصريا يحلم باستقلال بلاده، أو حتى شخصية أسطورية لم يكن لها وجود أصلا؟! بحنكة الرائد وليبرالية الباحث يتناول شفيق غربال كل هذه الأسئلة وغيرها، مدعما بحثه بالحجج والوثائق.



دار الشروق
www.shorouk.com
تصميم الغلاف عمرو الكفراوى